

كتاب : الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم المؤلف : ابن كثير

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم و به نستعين :
الحمد لله و سلام على عباده الذين اصطفى ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا و يرضى ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة من أخلص له قلبه و انجابت عنه أكناد الشرك و صفا ، و أقر له برق العبودية ، و استعاذ به من شر الشيطان و الهوى ، و تمسك بجملة المتين المنزل على رسوله الأمين محمد خير الورى صلوات الله و سلامه عليه دائماً إلى يوم الحشر و اللقا ، و رضي الله عن أصحابه و أزواجه و ذريته و أتباعه أجمعين ، أولي البصائر و النهى .

أما بعد :

فإنه لا يجمل بأولي العلم إهمال معرفة الأيام النبوية و التواريخ الإسلامية ، و هي مشتملة على علوم جمّة و فوائد مهمة ، لا يستغني عالم عنها ، و لا يعذر في العرو منها . و قد أحببت أن أعلق تذكرة في ذلك لتكون مدخلاً إليه و أمودجاً و عوناً له و عليه ، و على الله اعتمادي ، و إليه تفويضي و استنادي ، و هي مشتملة على ذكر نسب رسول الله عليه الصلاة و السلام ، و سيرته و أعلامه ، و ذكر أيام الإسلام بعده إلى يومنا هذا ، مما يمس حاجة ذوي الأرب إليه ، على سبيل الاختصار إن شاء الله تعالى .

فصل ذكر نسبه صلى الله عليه و سلم

هو سيد ولد آدم : أبو القاسم محمد ، و أحمد ، و الماحي الذي يمحي به الكفر ، و الحاشر الذي يحشر الناس ، و العاقب الذي ليس بعده نبي ، و المقفي ، و نبي الرحمة ، و نبي التوبة ، و نبي الملحمة . ابن عبد الله ، و هو أخو الحارث ، و الزبير ، و حمزة ، و العباس ، و يكنى أبا الفضل ، و أبي طالب ، و اسمه عبد مناف ، و أبي لهب ، و اسمه عبد العزى ، و عبد الكعبة ، و هو المقوم ، و قيل : هما اثنان ، و حجل ، و اسمه المغيرة ، و العيذاق ، و سمي بذلك لكثرة جوده ، و أصل اسمه نوفل ، و قيل : حجل ، و ضرار .
وصفية ، و عاتكة ، و أروى ، و أميمة ، و برة ، و أم حكيم — و هي البيضاء — .

هؤلاء كلهم أولاد عبد المطلب ، و اسمه شيبه الحمد على الصحيح ، ابن هشام و اسمه عمرو ، و هو أخو المطلب — و إليهما نسب ذوي القربى — و عبد شمس ، و نوفل ، أربعتهم أبناء عبد مناف أخي عبد العزى ، و عبد الدار ، و عبد ، أبناء قصي ، و اسمه زيد ، و هو أخو زهرة ، ابنا كلاب أخي تيم ، و يقظة أبي مخزوم ، ثلاثتهم أبناء مرة أخي عدي ، و هيصص ، و هم أبناء كعب أخي عامر ، و سامة ، و خزيمة ، و سعد ، و الحارث ، و عوف ، سبعتهم أبناء لؤي أخي تيم الأدرم . ابني غالب أخي الحارث ، و محارب ، بني فهر أخي الحارث ابني مالك أخي الصلت ، و يخلد ، بني البضر أخي مالك ، و ملكان ، و عبد مناة ، و غيرهم ، بني كنانة أخي أسد ، و أسدة ، الهون ، بني خزيمة أخي هذيل ، ابن مدركة ، و اسمه عمرو ، و هو أخو طابخة ، و اسمه عامر ، و قمعة ، و ثلاثتهم أبناء إلياس ،

أخي الناس ، وهو عيلان و الدقيس كلها ، كلاهما ، ولد مضر أخي ربيعة وهما الصريحان من ولد إسماعيل ، و أخي أنمار ، و إباد ، و قد تيامنا ، أربعتهم أولاد نزار أخي قضاعة في قول أكثر أهل النسب ، كلاهما ابنا معد بن عدنان . فجميع قبائل العرب ينتسبون إلى من ذكرت من أبناء عدنان .

و قد بين ذلك الحافظ أبو عمر النمري في كتاب الإنباه بمعرفة قبائل الرواة بياناً شافياً رحمه الله تعالى :
و قريش على قول أكثر أهل النسب هم الذين ينتسبون إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة و أنشدوا في ذلك :
قصي لعمرى كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

وقيل : بل جماع قريش هو النضر بن كنانة ، و عليه أكثر العلماء و المحققين ، و استدلل على ذلك بالحديث الذي ذكره أبو عمر بن عبد البر — رحمه الله تعالى — " عن الأشعث بن قيس رضي الله عنه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه و سلم في وفد كندة فقلت : أستم منا يا رسول الله ؟ قال : [لا ، نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا و لا نتفنى من أيينا] " . و قد رواه ابن ماجه في سننه بإسناد حسن ، و فيه : فكان الأشعث يقول : لا أوتى برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلده الحد .

و قيل : إن جماع قريش إلياس بن مضر بن نزار . و قيل : بل جماعهم أبوه مضر .
و هما قولان لبعض أصحاب الشافعي ، حكاهما أبو القاسم عبد الكريم الرافي في شرحه ، و هما وجهان غريبان جداً .

فأما قبائل اليمن كحمير و حضرموت و سبأ ، و غير ذلك ، فأولئك من قحطان ليسوا من عدنان . وقضاعة فيها ثلاثة أقوال : قيل : إنما من العدنانية ، و قيل : قحطانية ، و قيل : بطن ثالث لا من هؤلاء و لا من هؤلاء ، و هو غريب ، حكاه أبو عمر و غيره .

فصل ذكر نسبه صلى الله عليه و سلم بعد عدنان

و هذا النسب الذي سقناه إلى عدنان لا مزية فيه و لا نزاع ، و هو ثابت بالتواتر و الإجماع ، و إنما الشأن فيما بعد ذلك ، لكن لا خلاف بين أهل النسب و غيرهم من علماء أهل الكتاب أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله ، و هو الذبيح على الصحيح من قول الصحابة و الأئمة ، و إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليه أفضل الصلاة و السلام ، و قد اختلف في كم أب بينهما على أقوال :

فأكثر ما قيل أربعون أباً ، و أقل ما قيل سبعة آباء ، و قيل : تسعة ، و قيل : خمسة عشر ، ثم اختلف في أسمائهم .
و قد كره بعض السلف و الأئمة الانتساب إلى ما بعد عدنان ، و يحكى عن مالك بن أنس الأصبحي الإمام رحمه الله أنه كره ذلك .

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر في كتاب الإنباه و الذي عليه أئمة هذا الشأن في نسب عدنان قالوا : عدنان بن أدد ، بن مقوم بن ناحور ، بن تيرح ، ابن يعرب ، بن يشجب ، بن نابت ، بن إسماعيل ، بن إبراهيم خليل الرحمن ، بن تارح — و هو آزر — بن ناحور ، بن شاروخ ، بن راعو ، بن فالخ ، بن عيبر ، ابن شالخ ، بن أرفخشذ ، بن سام ، بن نوح بن لامك ، بن متوشلخ ، بن آخنوخ — و هو إدريس النبي عليه السلام فيما يزعمون ، و الله أعلم ، و هو أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم و شيث ، و أول من خط بالقلم ، بن يرد ، بن مهليل ، ابن قين ، بن يانش ، بن شيث ، بن آدم صلى الله عليه و سلم . هكذا ذكره محمد بن إسحق بن يسار المدني صاحب السيرة النبوية ، و

غيره من علماء النسب . و قد نظم ذاك أبو العباس عبد الله بن محمد الناشي المعتزلي في قصيدة يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و قد أوردها الإمام أبو عمر ، و شيخنا في تهذيبه ، و هي قصيدة بليغة أولها :
مدحت رسول الله أبغي بمدحه وفور حظوظي من كريم المآرب
مدحت امرءاً فاق المديح موحداً بأوصافه عن مبعد و مقارب
فجميع قبائل العرب مجتمعون معه في عدنان ، ولهذا قال الله تعالى : " قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى " ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يكن بطن من قريش إلا و لرسول الله صلى الله عليه و سلم فيهم قرابة .
وهو صفوة الله منهم كما رواه مسلم في صحيحه " عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [إن الله اختار كنانة من ولد إسماعيل ثم اختار من كنانة قريشاً ، ثم اختار من قريش بني هاشم ، ثم اختارني من بني هاشم] "

وكذلك بنو إسرائيل أنبياءهم و غيرهم يجتمعون يجتمعون معه في إبراهيم الخليل عله الصلاة والسلام ، الذي جعل الله في ذريته النبوة و الكتاب ، و هكذا أمر الله سبحانه بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام ، و هو في التوراة كما ذكره غير واحد من العلماء ممن جمع بشارات الأنبياء به صلى الله عليه و سلم ، إن الله تعالى قال لهم ما معناه : [سأقيم لكم من أولاد أخيكم نبياً كلكم يسمع له ، و أجعله عظيماً جداً] . و لم يولد من بني إسماعيل أعظم من محمد صلى الله عليه و سلم ، بل لم يولد من بني آدم أحد و لا يولد إلى قيام الساعة أعظم منه صلى الله عليه و سلم ، فقد صح أنه قال : " أنا سيد ولد آدم و لا فخر ، آدم فمن دونه من الأنبياء تحت لوائي " و صح عنه أنه قال : " سأقوم مقاماً يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم .. و هذا هو المقام المحمود الذي وعده الله تعالى ، و هو الشفاعة العظمى التي يشفع في الخلائق كلهم ، ليرحمهم الله بالفضل بينهم من مقام المحشر ، كما جاء مفسراً في الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه و سلم .
و أمه صلى الله عليه و سلم : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة .

فصل — ولادته و رضاعه و نشأته

ولد صلى الله عليه و سلم يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول ، و قيل : ثامنه ، و قيل عاشره ، و قيل لثنتي عشرة منه ، وقال الزبير بن بكار : ولد في رمضان ، و هو شاذ ، حكاه السهيلي في روضه .
و ذلك عام الفيل ، بعده بخمسين يوماً ، و قيل بثمانية و خمسين يوماً ، و قيل بعده بعشر سنين ، و قيل : بعد الفيل بثلاثين عاماً ، و قيل : بأربعين عاماً ، و الصحيح أنه ولد عام الفيل ، و قد حكاه إبراهيم بن المنذر الحزامي شيخ البخاري ، و خليفة بن خياط و غيرها إجماعاً .

و مات أبوه و هو حمل ، و قيل بعد ولادته بأشهر ، و قيل بسنة ، و قيل بستتين ، و المشهور الأول ، و استرضع له في بني سعد ، فأرضعته حليلة السعدية كما روينا ذلك بإسناد صحيح ، و أقام عندها في بني سعد نحواً من أربع سنين ، و شق عن فواده هناك ، فردته إلى أمه ، فخرجت به أمه إلى المدينة تزور أخواله بالمدينة ، فتوفيت بالأبواء ، وهي راجعة إلى مكة و له من العمر ست سنين و ثلاثة أشهر و عشرة أيام ، و قيل : بل أربع سنين و قد روى مسلم في صحيحه " أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما مر بالأبواء و هو ذاهب إلى مكة عام الفتح استأذن ربه في زيارة قبر أمه فأذن له ، فبكى وأبكى من حوله و كان معه ألف مقنع [يعني بالحديد] " .

فلما ماتت أمه حضنته أم أيمن وهي مولاته ، ورثها من أبيه ، وكفله جده عبد المطلب ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر ثمانين سنين توفي جده ، وأوصى به إلى عمه أبي طالب ، لأنه كان شقيق فكفله ، وحاطه أتم حياطة ، ونصره حين بعثه الله أعز نصر ، مع أنه كان مستمراً على شركه إلى أن مات ، فخفف الله بذلك من عذابه كما صح الحديث بذلك . وخرج به عمه إلى الشام في تجارة وهو ابن ثنتي عشرة سنة ، وذلك من تمام لطفه به ، لعدم من يقوم إذا تركه بمكة ، فرأى هو وأصحابه ممن خرج معه إلى الشام من الآيات فيه صلى الله عليه وسلم ما زاد عمه في الوصاة به والحرص عليه ، كما رواه الترمذي في جامعه بإسناد رجاله كلهم ثقات ، من تظليل الغمامة له وميل الشجرة بظلها عليه ، وتبشير بحرا الراهب به ، وأمره لعمه بالرجوع به لئلا يراه اليهود فيرمونه سوءاً ، والحديث له أصل محفوظ وفيه زيادات أخرز ثم خرج ثانياً إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها مع غلامها ميسرة على سبيل القراض ، فرأى ميسرة ما بمره من شأنه ، فرجع فأخبر سيدته بما رأى ، فرغبت إليه أن يتزوجها ، لما رجعت في ذلك من الخير الذي جمعه الله لها ، وفوق ما يخطر ببال بشر ، فنزوها رسول الله صلى الله عليه وسلم وله خمس وعشرون سنة .

وكان الله سبحانه قد صانه وحماه من صغره ، وطهره من دنس الجاهلية ومن كل عيب ، ومنحه كل خلق جميل حتى لم يكن يعرف بين قومه إلا بالأمين ، لما شاهدوا من طهارته وصدق حديثه وأمانته ، حتى إنه لما بنت قريش الكعبة في سنة خمس وثلاثين من عمره فوصلوا إلى موضع الحجر الأسود اشتجروا فيمن يضع الحجر موضعه ، فقالت كل قبيلة : نحن نضعها ، ثم اتفقوا على أن يضعه أول داخل عليهم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : جاء الأمين ، فرضوا به ، فأمر بئوب ، فوضع الحجر في وسطه ، وأمر كل قبيلة أن ترفع بجانب من جوانب الثوب ، ثم أخذوا الحجر فوضع موضعه صلى الله عليه وسلم .

فصل — مبعثه صلى الله عليه وسلم

ولما أراد الله تعالى رحمة العباد ، وكرامته بإرساله إلى العالمين ، حبيب إليه الخلاء ، فكان يتحنث في غار حراء ، كما كان يصنع ذلك معبدو ذلك الزمان ، كما قال أبو طالب في قصيدته المشهورة اللامية :

و ثور و من أرسى ثيراً مكانه وراق لبر في حراء و نازل

فجاء الحق وهو بغار حراء في رمضان ، وله من العمر أربعون سنة ، " فجاءه الملك فقال له اقرأ ، قال لست بقارئ ، فغته حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله فقال له : اقرأ ، قال : لست بقارئ ثلاثاً ثم قال : " اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم " . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره ، فأخبر بذلك خديجة رضي الله تعالى عنها ، وقال : قد خشيت بها على عقلي ، فنبئتته وقالت : أبشر كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر " ... في أوصاف أخر جميلة عددتها من أخلاقه صلى الله عليه وسلم وتصديقاً منها له وتنبئاً وإعانة على الحق ، فهي أول صديق له رضي الله تعالى عنها وأكرمها .

ثم مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يمكث لا يرى شيئاً ، و فتر عنه الوحي ، فاغتنم لذلك و ذهب مراراً ليرتد من رؤوس الجبال ، وذلك من شوقه إلى ما رأى أول مرة ، من حلاوة ما شاهده من وحي الله [إليه] ، فقيل : إن فترة الوحي كانت قريباً من سنتين أو أكثر ، ثم تبدى له الملك بين السماء والأرض على

كرسي ، و تثبه ، و بشره بأنه رسول الله حقاً ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه و سلم فرق منه و ذهب إلى خديجة و قال : زملوني . دثروني . فأنزل الله عليه " يا أيها المدثر * قم فأندّر * وربك فكبر * وثيابك فطهر " . و كانت الحال الأولى حال نبوة و إحياء ، ثم أمره الله في هذه الآية أن ينذر قومه و يدعوهم إلى الله ، فشمر صلى الله عليه و سلم عن ساق التكليف ، وقام في طاعة الله أتم قيام ، يدعوا إلى الله سبحانه الكبير و الصغير ، و الحر و العبد ، و الرجال و النساء ، و الأسود و الأحمر ، فاستجاب له عباد الله من كل قبيلة و كان حائز سبقهم أبو بكر رضي الله عنه ، عبد الله بن عثمان التيمي و آزره في دين الله ، ودعا معه إلى الله على بصيرة ، فاستجاب لأبي بكر عثمان بن عفان ، و طلحة ، و سعد بن أبي وقاص .

و أما علي فأسلم صغيراً ابن ثماني سنين ، و قيل : أكثر من ذلك و قيل : كان إسلامه قبل إسلام أبي بكر ، و قيل : لا ، و على كل حال ، فإسلامه ليس كإسلام الصديق ، لأنه كان في كفالة رسول الله صلى الله عليه و سلم أخذه من عمه إعانة له على سنة محل .

وكذلك أسلمت خديجة ، و زيد بن حارثة . و أسلم القس ورقة بن نوفل فصدق بما وجد من وحي الله ، و تمنى أن لو كان جذعاً ، و ذلك أول ما نزل الوحي ، و قد روى الترمذي : " أن رسول الله صلى الله عليه و سلم رآه في المنام في هيئة حسنة ، و جاء في حديث أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [رأيت القس عليه ثياب بيض] " و في الصحيحين أنه قال : هذا الناموس الذي جاء موسى بن عمران . لما ذهبت خديجة به إليه ، فقص عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم ما رأى من أمر جبريل عليه السلام . و دخل من صدره للإسلام على نور و بصيرة و معاناة فأخذهم سفهاء مكة بالأذى و العقوبة ، و صان الله رسوله و حماه بعمه أبي طالب ، لأنه كان شريفاً مطاعاً فيهم ، نبياً بينهم ، لا يتجاسرون على مفاجأته بشيء في أمر محمد صلى الله عليه و سلم لما يعلمون من محبته له ، و كان من حكمة الله بقاءه على دينهم لما في ذلك من المصلحة ، هذا رسول الله يدعو إلى الله ليلاً و نهاراً سراً و جهاراً لا يصده عن ذلك صاد و لا يردده عنه راد ، و لا يأخذه في الله لومة لائم.

فصل — فتنة المعذنين والهجرة إلى الحبشة

و لما اشتد أذى المشركين على من آمن و فتنوا منهم جماعة حتى إنهم كانوا يصبرونهم ، و يلقونهم في الحر ، و يضعون الصخرة العظيمة على صدر أحدهم في شدة الحر ، حتى إن أحدهم إذا أطلق لا يستطيع أن يجلس من شدة الألم فيقولون لأحدهم : اللاتي إلهك من دون الله . فيقول مكرهاً : نعم ! و حتى إن الجعل ليمر فيقولون : و هذا إلهك من دون الله . فيقول نعم ! و مر الحبيث عدو الله أبو جهل عمرو بن هشام بسمية أم عمار وهي تعذب و زوجها و ابنتها ، فطعنها بحربة في فرجها فقتلها ، رضي الله عنها و عن ابنتها و زوجها .

و كان الصديق رضي الله تعالى عنه إذا مر بأحد من الموالي يعذب يشتره من مواليه و يعتقه ، منهم بال ، و أمه حمامة ، و عامر بن فخيرة ، و أم عبس ، و زهيرة ، و النهديّة ، و ابنتها ، و جارية لبني عدي ، كان عمر يعذبها على الإسلام قبل أن يسلم . حتى قال له أبوه أبو قحافة : يا بني ، أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أعنت قوماً جلداء يمنعونك . فقال له أبو بكر : إني أريد ما أريد . فيقال إنه نزلت فيه " وسيجنها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى * " ، إلى آخر السورة .

فلما اشتد البلاء أذن الله سبحانه و تعالى في الهجرة إلى أرض الحبشة و هي في غرب مكة ، بين البلدين صحارى

السودان ، و البحر الآخذ من اليمن إلى القلزم ، فكان أول من خرج فاراً بدينه إلى الحبشة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، و معه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وتبعه الناس . وقيل : بل أول من هاجر إلى أرض الحبشة أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك . ثم خرج جعفر بن أبي طالب و جماعات رضي الله عنهم وأرضاهم و كانوا قريباً من ثمانين رجلاً .

و قد ذكر محمد بن إسحاق في جملة من هاجر إلى أرض الحبشة أبا موسى الأشعري عبد الله بن قيس ، وما أدري ما حمله على هذا ؟ فإن هذا أمر ظاهر لا يخفى على من دونه في هذا الشأن ، و قد أنكر ذلك عليه الواقدي وغيره من أهل المغازي ، و قالوا : إن أبا موسى إنما هاجر من اليمن إلى الحبشة إلى عند جعفر ، كما جاء ذلك مصرحاً به في الصحيح من روايته رضي الله عنه فأنحاز المهاجرون إلى مملكة أصحمة النجاشي فأواهم و أكرمهم ، فكانوا عنده آمنين . فلما علمت قريش بذلك بعثت في إثرهم عبد الله بن أبي ربيعة و عمرو بن العاص بمدايا و تحف من بلادهم إلى النجاشي ، ليردهم عليهم ، فأبى ذلك عليهم و تشفعوا إليه بالقواد من جنده ، فلم يجبههم إلى ما طلبوا ، فوشوا إليه : إن هؤلاء يقولون في عيسى قولاً عظيماً ، يقولون : إنه عبد ، فأحضر المسلمون إلى مجلسه ، و زعيمهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال : ما يقول هؤلاء إنكم تقولون في عيسى ؟ ! فتلا عليه جعفر سورة " كهيعص " فلما فرغ أخذ النجاشي عوداً من الأرض فقال : ما زاد هذا على ما في التوراة و لا هذا العود ، ثم قال : اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ، من سبكم غرم ، و قال لعمرو و عبد الله : و الله لو أعطيتوني دبراً من ذهب يقول : جبلاً من ذهب ما سلمتهم إليكما ، ثم أمر فرددت عليهما هداياهما ، و رجعا مقبوحين بشر خيبة و أسوئها .

فصل — مقاطعة قريش لبني هاشم و بني المطلب

ثم أسلم حمزة عم رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و جماعة كثيرون ، و فشا الإسلام . فلما رأت قريش ذلك ساءها ، و أجمعوا على أن يعاقدوا على بني هاشم و بني المطلب ابني عبد مناف : ألا يبايعوهم ، و لا يناكحوهم ، و لا يكلموهم ، و لا يجالسوهم ، حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه و سلم و كتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة ، و يقال إن الذي كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف ، و يقال : بل الضر بن الحارث ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم فشلت يده . و انحاز إلى شعب بنو هاشم و بنو المطلب ، مؤمنهم و كافرهم إلا أبا لهب لعنه الله (فإنه ظاهر قريشاً . و بقوا على تلك الحال لا يدخل (عليهم أحد نحرًا من ثلاث سنين .

و هناك عمل أبو طالب قصيدته المشهورة : جزى الله عنا عبد شمس و نوفلا .

ثم سعى في نقص تلك الصحيفة أقوام من قريش ، فكان القائم في أمر ذلك هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي ، مشى في ذلك إلى مطعم بن عدي و جماعة من قريش ، فأجابوه إلى ذلك ، و أخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم قومه أن الله قد أرسل على تلك الصحيفة الأربعة ، فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله عز و جل ، فكان كذلك . ثم رجع بنو هاشم و بنو المطلب إلى مكة ، و حصل الصلح برغم من أبي جهل عمرو بن هشام . و اتصل الخبر بالذين هم بالحبشة أن قريشاً أسلموا ، فقدم مكة منهم جماعة ، فوجدوا البلاء و الشدة كما كانا ، فاستمروا بمكة إلى أن هاجروا إلى المدينة ، إلا السكران بن عمرو زوج سود بنت مزينة ، فإنه مات بعد مقدمه من الحبشة بمكة قبل الهجرة إلى المدينة و إلا سلمة بن هشام ، و عياش بن

أبي ربيعة ، فإنهما احتبسوا مستضعفين ، وإلا عبد الله بن مخزومة بن عبد العزى فإنه حبس فلما كان يوم بدر ، هرب من المشركين إلى المسلمين .

فصل — خروج النبي صلى الله عليه و سلم إلى الطائف

فلما نقضت الصحيفة وافق موت خديجة رضي الله عنها ، و موت أبي طالب ، و كان بينهما ثلاثة أيام ، فاشتد البلاء على رسول الله صلى الله عليه و سلم من سفهاء قومه ، و أقدموا عليه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الطائف لكي يؤروه و ينصروه على قومه ، و يمنعوهم منهم ، و دعاهم إلى الله عز و جل ، فلم يجيبوه إلى شيء من الذي طلب ، و آذوه أذى عظيماً ، لم ينل قومه منه أكثر مما نالوا منه . فرجع عنهم ، و دخل مكة في جوار المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، و جعل يدعو إلى الله عز و جل ، فأسلم الطفيل بن عمرو الدوسي ، و دعا له رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يجعل الله له آية ، فجعل الله في وجهه نوراً ، فقال : يا رسول الله أخشى أن يقولوا هذا مثله ، فدعا له ، فصار النور في سوطه ، فهو المعروف بذي النور . و دعا الطفيل قومه إلى الله فأسلم بعضهم ، و أقام في بلاده ، فلما فتح الله على رسوله خير قدم بهم في نحو من ثمانين بيتاً .

فصل — الإسراء و المعراج و عرض النبي نفسه على القبائل

و أسري برسول الله صلى الله عليه و سلم يجسده على الصحيح من قولي الصحابة و العلماء ، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، ركباً البراق في صحبه جبريل عليه السلام ، فنزل ثم ، و أم بالأنبياء بيت المقدس فصلى بهم . ثم عرج به تلك الليلة من هناك إلى السماء الدنيا ، ثم للتي تليها ، ثم الثالثة ، ثم إلى التي تليها ، ثم الخامسة ، ثم التي تليها ، ثم السابعة . و رأى عندها جبريل على الصورة التي خلقه الله عليها ، و فرض الله عليه الصلوات تلك الليلة .
و اختلف العلماء : هل رأى ربه عز و جل أولاً ؟ على قولين :

فصح " عن ابن عباس أنه قال : رأى ربه و جاء في رواية عنه : رآه بفؤاده " . و في الصحيحين "عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها أنكرت ذلك على قائله ، و قالت هي و ابن مسعود : إنما رأى جبريل " . و روى مسلم في صحيحه من "حديث قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم هل رأيت ربك ؟ قال : [نور ، أنى أراه ! ؟] و في رواية [رأيت نوراً] . " فهذا الحديث كاف في هذه المسألة .
و لما أصبح رسول الله صلى الله عليه و سلم في قومه أخبرهم بما أراه الله من آياته الكبرى ، فاشتد تكذيبهم له و أذاهم و استجراؤهم عليه .

و جعل رسول الله صلى الله عليه و سلم يعرض نفسه على القبائل أيام الموسم و يقول : " من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي ! ؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي " . هذا و عمه أبو لهب — لعنه الله — وراءه يقول الناس : لا تسمعوا منه فإنه كذاب . فكان أحياء العرب يتحامونه لما يسمعون من قريش عنه : إنه كذاب ، إنه ساحر ، إنه كاهن ، إنه شاعر ، أكاذيب يقدفونه بها من تلقاء أنفسهم ، فيصغي إليهم من لا تمييز له من الأحياء . و أما الألباء إذا سمعوا كلامه و تفهموه شهدوا بأن ما يقوله حق و أنهم مفترون عليه ، فيسلمون .

فصل — حديث سويد بن الصامت و إسلام إياس بن معاذ

و كان مما صنع الله لأنصاره من الأوس و الخزرج أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبياً مبعوث في هذا الزمن ، و يتوعدونهم به إذا حاربوهم ، و يقولون : إنا سنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، و كان الأنصار يحجون البيت ، (كما كانت العرب تحججه) و أما اليهود فلا . فلما رأى الأنصار رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعوا الناس إلى الله تعالى ، و رأوا أمارات الصدق عليه قالوا : و الله هذا الذي توعدكم يهود به فلا يسبقنكم إليه .

و كان سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف بن الأوس قد قدم مكة فدعاه رسول الله صلى الله عليه و سلم فلم يبعد ولم يجب ثم انصرف إلى المدينة ، فقتل في بعض حروبهم ، و كان سويد هذا ابن خالة عبد المطلب . ثم قدم مكة أبو الحيسر أنس بن رافع في فتية من قومه من بني عبد الأشهل ، يطلبون الحلف ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الإسلام ، فقال إياس بن معاذ منهم — و كان شاباً حدثاً — : يا قوم ، هذا و الله خير مما جئنا له ، فضربه أبو الحيسر و انتهره ، فسكت ، ثم لم يتم لهم الحلف ، فانصرفوا إلى بلادهم إلى المدينة ، فيقال إن إياس بن معاذ مات مسلماً.

فصل — بيعة العقبة الأولى و الثانية

ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لقي عند العقبة في الموسم نفراً من الأنصار ، كلهم من الخزرج ، و هم : أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس ، و عوف بن الحارث بن رفاع ، و هو ابن عفراء و رافع بن مالك بن العجلان ، و قطبة بن عامر بن حديدة ، و عقبة بن عامر بن نابي ، و جابر بن عبد الله بن رثاب ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الإسلام ، فأسلموا مبادرة إلى الخير ، ثم رجعوا إلى المدينة فدعوا إلى الإسلام ، ففشى الإسلام فيها ، حتى لم تبق دار إلا و قد دخلها الإسلام .

فلما كان العام المقبل ، جاء منهم اثنا عشر رجلاً : الستة الأوائل خلا جابر بن عبد الله بن رثاب ، و معهم : معاذ بن الحارث بن رفاع ، أخو عوف المتقدم ، و ذكوان بن عبد قيس بن خلدة — و قد أقام ذكوان هذا بمكة حتى هاجر إلى المدينة فيقال : إنه مهاجري أنصاري — و عبادة بن صامت بن قيس ، و أبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة ، فهؤلاء عشرة من الخزرج . و اثنان من الأوس و هما : أبو الهيثم مالك بن التيهان . و عويم بن ساعدة . فبايعوا رسول الله صلى الله عليه و سلم كبيعة النساء . ولم يكن أمر بالقتال بعد .

فلما انصرفوا إلى المدينة ، بعث معهم رسول الله صلى الله عليه و سلم عمرو بن أم مكتوم ، و مصعب بن عمير ، يعلمان من أسلم منهم القرآن ، و يدعوان إلى الله عز و جل ، فتزلا على أبي أمامة أسعد بن زرارة ، و كان مصعب بن عمير يؤمهم و قد جمع بهم يوماً بالأربعين نفساً ، فأسلم على يديهما (بشر كثير منهم :) أسيد بن حضير ، و سعد بن معاذ ، و أسلم بإسلامهما يومئذ جميع بني عبد الأشهل ، الرجال و النساء ، إلا الأصيرم ، وهو عمرو بن ثابت بن وقش ، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد ، فأسلم يومئذ ، وقاتل فقتل قبل أن يسجد لله سجدة . فأخبر عنه النبي صلى الله عليه و سلم فقال : " عمل قليلاً و أجر كثيراً " .

و كثر الإسلام بالمدينة و ظهر ، ثم رجع مصعب إلى مكة ، و وافي الموسم ذلك العام خلق كثير من الأنصار من المسلمين و المشركين ، و زعيم القوم البراء بن معرور رضي الله عنه .

فلما كانت ليلة العقبة — الثالث الأول منها — تسلسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعون رجلاً و امرأتان ، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية من قومهم و من كفار مكة ، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم و أبناءهم (و أزهرهم) . و كان أول من بايعه ليلتذ البراء بن معرور ، و كانت له اليد البيضاء ، إذ أكد العقد و بادر إليه . و حضر العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم موثقاً مؤكداً للبيعة مع أنه كان بعد علي دين قومه . و اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم تلك الليلة اثني عشر تقياً وهم : أسعد بن زرارة بن عدس و سعد بن ربيع بن عمرو ، و عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس ، و رافع بن مالك بن العجلان ، و البراء بن معرور بن صخر بن خنساء ، و عبد الله بن عمرو بن حرام ، وهو والد جابر ، و كان قد أسلم تلك الليلة رضي الله عنه ، و سعد بن عباد بن دليم ، و المنذر بن عمرو بن خنيس ، و عباد بن الصامت . فهؤلاء تسعة من الخزرج . و من الأوس ثلاثة وهم : أسيد بن الحضير بن سمالك ، و سعد بن خيثمة بن الحارث ، و رفاعه بن عبد المنذر بن زبير ، و قيل : بل أبو الهيثم بن التيهان مكانه . ثم الناس بعدهم .

و المرأتان هما : أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو ، التي قتل مسيلمة ابنها حبيب بن زيد بن عاصم بن كعب . و أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي . فلما تمت هذه البيعة استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يميلوا على أهل العقبة فلم يأذن لهم في ذلك ، بل أذن للمسلمين بعدها من أهل مكة في الهجرة إلى المدينة ، فبادر الناس إلى ذلك ، فكان أول من خرج إلى المدينة من أهل مكة أبو سلمة بن عبد الأسد ، هو و امرأته أم سلمة فاحتبست دونه و منعت سنة من اللحاق به ، و حيل بينها وبين ولدها ، ثم خرجت بعد السنة بولدها إلى المدينة ، و شيعها عثمان بن طلحة ، و يقال : إن أبا سلمة هاجر قبل العقبة الأخيرة ، فالله أعلم . ثم خرج الناس أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً .

فصل — هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

و لم يبق (بمكة) من المسلمين إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبو بكر و علي رضي الله تعالى عنهما أقاما بأمره لهما ، و خلا من اعتقله المشركون كرهاً ، و قد أعد أبو بكر رضي الله عنه جهازه و جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منتظراً حتى يأذن الله عز و جل لرسوله صلى الله عليه وسلم في الخروج . فلما كانت ليلة هم المشركون بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، و أرسلوا على الباب أقواماً ، إذا خرج عليهم قتلوه ، فلما خرج عليهم لم يره منهم أحد ، و قد جاء في حديث أنه ذر على رأس كل واحد من هم تراباً ثم خلص إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه ، فخرجوا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً ، و قد استأجرا عبد الله بن أريقط ، و كان هادياً خريئاً ، ماهراً بالدلالة إلى أرض المدينة ، و أمناه على ذلك مع أنه كان على دين قومه ، و سلما إليه راحليهما ، و واعداه غار ثور بعد ثلاث ، فلما حصلا في الغار عمى الله على قريش خبرهما ، فلم يدروا أين ذهبا . و كان عامر بن فهيرة ، يريح عليهما غنماً لأبي بكر ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تحمل لهما الزاد إلى الغار ، و كان عبد الله بن أبي بكر يتسمع ما يقال بمكة ثم ينهب إليهما بذلك فيحترزان منه . و جاء المشركون في طلبهما إلى ثور ، و ما هناك من الأماكن ، حتى إنهم مروا على باب الغار ، و حازت أقدامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم و صاحبه ، و عمى الله عليهما باب الغار ، و يقال — و الله أعلم — إن العنكبوت سدت على باب الغار ، و إن حمامتين عشتا على بابه ، و ذلك تأويل قوله تعالى " إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى

وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم " و ذلك أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لشدة حرصه بكى حين مر المشركون ، و قال : يا رسول الله

، لو أن أحدهم نظر موضع قدميه لرآنا ، فقال له النبي صلى الله عليه و سلم : " يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ " . و لما كان بعد الثلاث أتى ابن أريقط بالراحلتين فركباهما ، و أردف أبو بكر عامر بن فهيرة و سار الديلي أمامهما على راحلته .

و جعلت قريش لمن جاء بواحد من محمد صلى الله عليه و سلم و أبي بكر رضي الله عنه مائة من الإبل ، فلما مروا بجي مدلج ، بصر بهم سراقة بن مالك بن جعشم ، سيد مدلج ، فركب جواده و سار في طلبهم ، فلما قرب منهم سمع قراءة النبي صلى الله عليه و سلم ، و أبو بكر رضي الله عنه يكثر الالتفات حذراً على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وهو صلى الله عليه و سلم لا يلتفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هذا سراقة بن مالك قد رهقنا . فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم فساخت يدا فرسه في الأرض فقال : رميت ، إن الذي أصابني بدعائكما ، فادعوا الله لي ، و لكما علي أن أرد الناس عنكما ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه و سلم فأطلق ، و سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يكتب له كتاباً ، فكتب له أبو بكر في آدم ، و رجع يقول للناس : قد كفيتهم ما ههنا . و قد جاء مسلماً عام حجة الوداع و دفع إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم الكتاب الذي كتبه له ، فوفى له رسول الله صلى الله عليه و سلم بما وعده و هو لذلك أهل .

و مر رسول الله صلى الله عليه و سلم في مسيره ذلك بخيمة أم معبد فقال عندها ، و رأت من آيات نبوته في الشاة و حلبها لبناً كثيراً في سنة مجدبة ما بهر العقول ، صلى الله عليه و سلم .

فصل — دخول عليه الصلاة و السلام للمدينة

و قد كان بلغ الأنصار مخرجه من مكة و قصده إياهم ، فكانوا كل يوم يخرجون إلى الحرة ينتظرونه ، فلما كان يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من نبوته صلى الله عليه و سلم وافاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم حين اشتد الضحى ، و كان قد خرج الأنصار يومئذ ، فلما طال عليهم رجوعوا إلى بيوتهم ، و كان أول من بصر به رجل من اليهود — و كان على سطح أطمه — فنادى بأعلى صوته : يا بني قيلة هذا جدكم الذي تنتظرون ! فخرج الأنصار في سلاحهم و حيوه بتحية النبوة.

و نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم بقباء على كلثوم بن الهدم ، و قيل : بل على سعد بن خيشمة ، و جاء المسلمون يسلمون على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و أكثرهم لم يره بعد ، و كان بعضهم أو أكثرهم يظنه أبا بكر لكثرة شبيهه ، فلما اشتد الحر قام أبو بكر بثوب يظلل على رسول الله صلى الله عليه و سلم فتحقق الناس حيثند رسول الله عليه الصلاة و السلام .

فصل — استقراره عليه الصلاة و السلام بالمدينة

فأقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بقباء أياماً ، و قيل : أربعة عشر يوماً ، و أسس مسجد بقاء ثم ركب بأمر الله تعالى فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي رانواً ، و رغب إليه أهل تلك الدار أن ينزل عليهم فقال : " دعوها فإنها مأمورة " فلم تنزل ناقته سائرة به لا تمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا

إليه في النزول عليهم ، فيقول : " دعوها فإنها مأمورة " . فلما جاءت موضع مسجده اليوم بركت ، ولم ينزل عنها صلى الله عليه وسلم حتى نهضت و سارت قليلاً ثم التفتت و رجعت فبركت في موضعها الأول ، فنزل عنها صلى الله عليه وسلم ، و ذلك في دار بني النجار ، فحمل أبو أيوب رضي الله عنه رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

و اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع المسجد ، و كان مربداً لليتيمين ، و بناه مسجداً ، فهو مسجده الآن ، و بني لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم حجراً إلى جانبه .
و أما علي رضي الله عنه فأقام بمكة ريثما أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده و غير ذلك ، ثم لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصل — المواجهة بين المهاجرين و الأنصار

و وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بالمدينة من اليهود ، و كتب بذلك كتاباً و أسلم حبرهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، و كفر عامتهم و كانوا ثلاث قبائل : بنو قيناع ، و بنو النصر ، و بنو قريظة .
و آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين و الأنصار ، فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء في ابتداء الإسلام إراثاً مقدماً على القرابة .
و فرض الله سبحانه و تعالى إذ ذاك الزكاة رفقا بفقراء المهاجرين ، و كذا ذكر ابن حزم في هذا التاريخ ، و قد قال بعض الحفاظ من علماء الحديث : إنه أعياه فرض الزكاة متى كان .

فصل — فرض الجهاد

و لما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بين أظهر الأنصار و تكفلوا بنصره و منعه من الأسود و الأحمر ، رمتهم العرب قاطبة عن قوس واحدة ، و تعرضوا لهم من كل جانب ، و كان الله سبحانه قد أذن للمسلمين في الجهاد في سورة الحج و هي مكية في قوله تعالى : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير " ، ثم لما صاروا في المدينة و صارت لهم شوكة و عضد كتب الله عليهم الجهاد كما قال الله تعالى في سورة البقرة : " كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون " .

فصل — أول المغازي و البعث — غزوة الأبواء

و كانت أول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة الأبواء ، و كانت في صفر سنة اثنتين من الهجرة ، خرج بنفسه صلى الله عليه وسلم حتى بلغ ودان ، فوداع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة مع سيلهم مخشي بن عمرو ، ثم كر راجعاً إلى المدينة و لم يلق حرباً ، و كان استخلف عليها سعد بن عباد رضي الله عنه .
بعث حمزة بن عبد المطلب
ثم بعث عمه حمزة رضي الله عنه في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم أنصاري إلى سيف البحر فالتقى بأبي جهل

بن هشام ، و ركب معه زهاء ثلاثمائة ، فحال بينهم مجدي بن عمرو الجهني ، لأنه كان موادعاً للفريقين .

بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب

و بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب في ربيع الآخر في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين أيضاً إلى ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة ، فلقوا جمعاً عظيماً من قريش عليهم عكرمة بن أبي جهل ، و قيل : بل كان عليهم مكرز بن حفص ، فلم يكن بينهم قتال ، إلا أن سعد بن أبي وقاص رشق المشركين يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمي به في سبيل الله ، و فر يومئذ من الكفار إلى المسلمين المقداد بن عمرو الكندي ، و عتبة بن غزوان رضي الله عنهما . فكان هذان البعثان أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و لكن اختلف في أيهما كان أول ، و قيل : إنهما كانا في السنة الأولى من الهجرة . و هو قول ابن جرير الطبري ، و الله تعالى أعلم .

فصل — غزوة بواط

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه و سلم غزوة بواط ، فخرج بنفسه صلى الله عليه و سلم في ربيع الآخر من السنة الثانية ، و استعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون فسار حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ، ثم رجع ولم يلق حرباً

غزوة العشيرة

ثم كانت بعدها غزوة العشيرة ، و يقال بالسين المهملة ، و يقال العشيرة . خرج بنفسه صلى الله عليه و سلم في أثناء جماد الأولى حتى بلغها ، و هي مكان بطن ينبع و أقام هناك بقية الشهر و ليالي من جمادى الآخرة [و صالح بني مدلج] ، ثم رجع و لم يلق كيذا ، و قد كان استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد . و في صحيح مسلم من حديث أبي إسحاق السبيعي قال : قلت لزيد بن أرقم : كم غزا رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ قال : [تسع عشرة غزوة أولها العشيرة أو العشيرة] .

غزوة بدر الأولى

ثم خرج بعدها بنحو من عشرة أيام إلى بدر الأولى ، و ذلك أن كرز بن جابر الفهري ، أغار على سرح المدينة ، فطلبه فبلغ وادياً يقال له سفوان في ناحية بدر ، فقاته كرز ، (فرجع) و قد كان استخلف على المدينة زيد بن حارثة رضي الله عنه .

و بعث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في طلب كرز بن جابر فيما قيل و الله أعلم . و قيل : بل بعثه لغير ذلك .

فصل — بعث عبد الله بن جحش

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي و ثمانية من المهاجرين ، و كتب له كتاباً و أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ، و لا يكره أحداً من أصحابه ، ففعل ، ولما فتح الكتاب وجد فيه : (إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل) (نحلة) (بين مكة و الطائف) و ترصد بها قريشاً ، و تعلم لنا من أخبارهم (، فقال : سمعاً و طاعة ، و أخبر أصحابه بذلك ، و بأنه لا يستكرهم ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، و من كره الموت فليرجع ، و أما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم .

فلما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه ، و تقدم عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرت به عبر لقريش تحمل زبيياً و أدماً و تجارة ، فيها عمرو بن الحضرمي و عثمان و نوفل ابنا عبد الله بن المغيرة ، و الحكم بن كيسان مولى بني المغيرة فتشاور المسلمون و قالوا : نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اتفقوا على ملاقاتهم فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسروا عثمان و الحكم ، و أفلت نوفل . ثم قدموا بالبعير و الأسيرين قد عزلوا من ذلك الخمس ، فكانت أول غنيمة في الإسلام و أول خمس في الإسلام ، و أول قتييل في الإسلام و أول أسير في الإسلام ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنكر عليهم ما فعلوه ، و قد كانوا رضي الله عنهم مجتهدين فيما صنعوا . و اشتد تعنت قريش و إنكارهم ذلك ، و قالوا : محمد قد أحل الشهر الحرام ، فأنزل الله عز و جل في ذلك " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله و كفر به و المسجد الحرام و إخراج أهله منه أكبر عند الله " يقول سبحانه : هذا الذي وقع و إن كان خطأ ، لأن القتال في الشهر الحرام كبير عند الله ، إلا أن ما أنتم عليه أيها المشركون من الصد عن سبيل الله و الكفر به و بالمسجد الحرام ، و إخراج محمد و أصحابه الذين هم أهل المسجد الحرام في الحقيقة أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام . ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل الخمس من تلك الغنيمة ، و أخذ القداء من ذينك الأسيرين .

فصل — تحويل القبلة و فرض الصوم

و في شعبان من هذه السنة حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، و ذلك على رأس ستة عشر شهراً من مقدمه المدينة ، و قيل سبعة عشر شهراً ، و هما في الصحيحين . و كان أول من صلى إليها أبو سعيد بن المعلى و صاحب له كما رواه النسائي : و ذلك أنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه و سلم يخطب الناس و يتلو عليهم تحويل القبلة ، فقلت لصاحبي : تعال نصلي ركعتين فكون أول من صلى إليها ، فتوارينا و صلينا إليها ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم فصلى بالناس الظهر يومئذ . و فرض صوم رمضان ، و فرضت لأجله زكاة الفطر قبيله بيوم .

فصل — غزوة بدر الكبرى

نذكر فيه ملخص وقعة بدر الثانية ، و هي الوقعة العظيمة التي فرق الله فيها بين الحق و الباطل و أعز الإسلام ، و دمع الكفر و أهله ، و ذلك أنه لما كان في رمضان من هذه السنة الثانية بلغ رسول الله صلى الله عليه و سلم أن عيراً مقبلة من الشام صحبة أبي سفيان ، صخر بن حرب ، في ثلاثين أو أربعين رجلاً من قريش و هي عبر عظيمة ، تحمل أموالاً جزيلة لقريش ، فندب صلى الله عليه و سلم الناس للخروج إليها ، و أمر من كان ظهره حاضراً بالنهوض ، و لم يحتفل لها احتفالاً كثيراً ، إلا أنه خرج في ثلاثمائة و بضعة عشر رجلاً ، لثمان خلون من رمضان ، و استخلف على المدينة و على الصلاة ابن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة بن عبد المنذر و استعمله على المدينة . و لم يكن معه من الخيل سوى فرس الزبير ، و فرس المقداد بن الأسود الكندي ، و من الإبل سبعون بعيراً يعقب الرجال و الثلاثة فأكثر على البعير الواحد ، فرسول الله صلى الله عليه و سلم وعلي و مرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً ، و زيد بن حارثة و أنسة و أبو كبشة موالي رسول الله صلى الله عليه و سلم و حمزة يعتقبون رجلاً ، و أبو بكر و عمر و عبد الرحمن بن عوف على جمل آخر .. و هلم جرا .

و دفع صلى الله عليه وسلم اللواء إلى مصعب بن عمير ، و الراية الواحدة إلى علي بن أبي طالب ، و الراية الأخرى إلى رجل من الأنصار ، و كانت راية الأنصار بيد سعد بن معاذ ، و جعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة . و سار صلى الله عليه وسلم فلما قرب من الصفراء بعث بسيس بن عمرو الجهني ، و هو حليف بني ساعدة ، و عدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار إلى بدر يتحسسان أخبار العير .

و أما أبو سفيان فإنه بلغه مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم و قصده إياه ، فاستأجر ضمضم ابن عمرو الغفاري إلى مكة مستصرخاً لقريش بالنفير إلى عيرهم ليمنعوه من محمد و أصحابه .

و بلغ الصريخ أهل مكة ، فنهضوا مسرعين و أوعبوا في الخروج ، و لم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي هب ، فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين ، و حشدوا ممن حولهم من قبائل العرب ، و لم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي ، فلم يخرج معهم منهم أحد .

و خرجوا من ديارهم كما قال الله عز و جل : " بطرا و رثاء الناس و يصدون عن سبيل الله " و أقبلوا في تحمل و حنق عظيم على رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه لما يريدون من أخذ عيرهم ، و قد أصابوا بالأمس عمرو بن الحضرمي و العير التي كانت معه .

فجمعهم الله على غير ميعاد لما أراد في ذلك من الحكمة كما قال تعالى " ولو تواعدتم لآخلفتكم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا " .

و لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خروج قريش استشار أصحابه ، فتكلم كثير من المهاجرين فأحسنوا ، ثم استشارهم وهو يريد بما يقول الأنصار ، فبادر سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله ! كأنك تعرض بنا ، فوالله يا رسول الله ، لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك ، فسر بنا يا رسول الله على بركة الله . فسر صلى الله عليه وسلم بذلك و قال : " سيروا و أبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين " .

ثم رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم و نزل قريباً من بدر ، و ركب صلى الله عليه وسلم مع رجل من أصحابه مستخبراً ثم انصرف ، فلما أمسى بعث علياً و سعداً و الزبير إلى ماء بدر يلتمسون الخبر ، فقدموا بعدين لقريش ، و رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، فسألهما أصحابه لمن أنتما ؟ فقالا : نحن سقاة لقريش . فكره ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم و ودوا أن لو كانا لعير أبي سفيان و أنه منهم قريب ليفوزوا به ، لأنه أخف مؤونة من قتال النفير من قريش لشدة بأسهم و استعدادهم لذلك ، فجعلوا يضربونهما ، فإذا آذاهما الضرب قالوا : نحن لأبي سفيان . فإذا سكروا عنهما قالوا : نحن لقريش . فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته قال : والذي نفسي بيده إنكم لتضربونهما إذا صدقا و تتركوهما إذا كذبا . ثم قال لهما : أخبراني أين قريش ؟ قالوا : وراء هذا الكثيب . قال : كم القوم ؟ قالوا : لا علم لنا . فقال : كم ينحرون كل يوم ؟ فقالوا : يوماً عشراً و يوماً تسعاً : فقال صلى الله عليه وسلم : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف "

و أما بسيس بن عمرو و عدي بن أبي الزغباء فإنهما وردا ماء بدر فسمعا جارية تقول لصاحبتها : ألا تقضيني ديني ؟ فقالت الأخرى : إنما تقدم العير غداً أو بعد غد فأعمل لهم و أقضيك . فصدقها مجدي بن عمرو . فانطلقا مقبلين لما سمعا ، و يعقبهما أبو سفيان ، فقال لجدي بن عمرو : هل أحسست أحداً من أصحاب محمد ؟ فقال : لا إلا أن راكبين نزلا عند تلك الأكمة . فانطلق أبو سفيان إلى مكائهما و أخذ من بعير بعيرهما ففته فوجد فيه النوى فقال : و الله هذه علائف يثرب ، فعدل بالعير إلى طريق الساحل ، فجاء ، و بعث إلى قريش يعلمهم أنه قد نجا هو و العير و يأمرهم أن يرجعوا .

و بلغ ذلك قريشاً ، فأبى أبو جهل و قال : و الله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، و نقيم عليه ثلاثاً ، و نشرب الخمر ، و تضرب على رؤوسنا القيان ، فتهابنا العرب أبداً ، فرجع الأخنس بن شريق بقومه بني زهرة قاطبة ، و قال : إنما خرجتم لتمنعوا غيركم و قد نجت ، و لم يشهد بدرأً زهري إلا عما مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله : و والد الزهري ، فإنهما شهداها يومئذ و قتلا كافرين .

فبادر رسول الله صلى الله عليه و سلم قريشاً إلى ماء بدر ، و نزل على أدنى ماء هناك ، فقال له الحباب بن المنذر بن عمرو : يا رسول الله ، هذا المنزل الذي نزلته أمرك الله به ؟ أو منزل نزلته للحرب و المكيدة ؟ قال : " بل منزل نزلته للحرب و المكيدة " . فقال : ليس هذا بمنزل ، فانخفض بنا حتى نأتي أدنى ماء من مياه القوم فننزله ، و نعور ما ورائنا من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ، فنشرب و لا يشربون . فاستحسن رسول الله صلى الله عليه و سلم منه ذلك ، و حال الله بين قريش و بين الماء بمطر عظيم أرسله ، و كان نقمة على الكفار و نعمة على المسلمين ، مهد لهم الأرض و لبدها ، و بني لرسول الله صلى الله عليه و سلم عريش يكون فيه . و مشى صلى الله عليه و سلم في موضع المعركة ، و جعل يريهم مصارع رؤوس القوم واحداً واحداً ، ويقول : " هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، و هذا مصرع فلان ، و هذا مصرع فلان " . قال عبد الله بن مسعود : فو الذي بعثه بالحق ما أخطأ واحد منهم موضعه الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم .

و بات رسول الله صلى الله عليه و سلم تلك الليلة يصلي إلى جذم شجرة هناك ، و كانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان ، فلما أصبح و أقيمت قريش في كتائبها ، قال صلى الله عليه و سلم : " اللهم هذه قريش قد أقيمت في فخرها و خيلائها ، تحادك و تحاد رسولك " . و رام الحكيم بن حزام و عتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش فلا يكون قتال ، فأبى ذلك أبو جهل ، و تقول هو و عتبة ، و أمر أبو جهل أخا عمرو بن الحضرمي أن يطلب دم أخيه عمرو ، فكشف عن أستى و صرخ : واعمراه ! واعمراه ! فحمي القوم و نشبت الحرب . و عدل رسول الله صلى الله عليه و سلم الصفوف ، ثم رجع إلى العريش هو و أبو بكر وحده ، و قام سعد بن معاذ و قوم من الأنصار على باب العريش يحمون رسول الله صلى الله عليه و سلم و خرج عتبة بن ربيعة ، و شيبه بن ربيعة ، و الوليد بن عتبة ، ثلاثتهم جميعاً يطلبون البراز ، فخرج إليهم من المسلمين ثلاثة من الأنصار ، وهم : عوف و معوذ ابنا عفراء ، و عبد الله بن رواحة ، فقالوا لهم : من أنتم ؟ فقالوا : من الأنصار ، فقالوا : أكفء كرام و إنما نريد بني عمنا ، فبرز لهم علي و عبيدة بن الحارث و حمزة رضي الله عنهم ، فقتل علي الوليد ، و قتل حمزة عتبة ، و قيل : شيبه ، و اختلف عبيدة و قرنه بضر بتين ، فأجهد كل منهما صاحبه ، ففكر حمزة و علي فتمما عليه و احتملا عبيدة و قد قطعت رجله ، فلم يزل طمثاً حتى مات بالصفراء رحمه الله تعالى و رضي عنه . و في الصحيح أن علياً رضي الله عنه كان يتأول قوله تعالى " هذان خصمان اختصموا في ربهم " في برازهم يوم بدر ، و لا شك أن هذه الآية في سورة الحج ، و هي مكية ، و وقعة بدر بعد ذلك ، إلا أن برازهم من أول ما دخل في معنى الآية .

ثم حمي اللوطيس ، و اشتد القتال ، و نزل النصر ، و اجتهد رسول الله صلى الله عليه و سلم في الدعاء ، و ابتهل ابتهالاً شديداً ، حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه ، و جعل أبو بكر يصلحه عليه و يقول : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإنه منجز لك ما وعدك . و رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " اللهم إن قتلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض " فذلك قوله تعالى " إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة

مردفين " ثم أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءً ، ثم رفع رأسه وهو يقول : " أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثناباه النقع " .

و كان الشيطان قد تبدى لقريش في صورة سراقفة بن مالك بن جعشم زعيم مدلج ، فأجارهم ، وزين لهم الذهاب إلى ما هم فيه ، و ذلك أنهم خشوا بني مدلج أن يخلفوهم في أهاليهم و أمواهم ، فذلك قوله تعالى : " وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون " و ذلك أنه رأى الملائكة حين نزلت للقتال ، و رأى ما لا قبل له به ، ففر و قاتلت الملائكة كما أمرها الله ، وكان الرجل من المسلمين يطلب قرنه ، فإذا به قد سقط أمامه . و منح الله المسلمين أكتاف المشركين ، فكان أول من فر منهم خالد بن الأعلم فأدرك فأسر ، و تبعهم المسلمون في آثارهم ، يقتلون و يأسرون ، فقتلوا منهم سبعين وأسرهم سبعين ، و أخذوا غنائمهم . فكان من جملة من قتل من المشركين ممن سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم موضعه بالأمس : أبو جهل ، و هو أبو الحكم عمرو بن هشام لعنه الله ، قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ، و معوذ بن عفراء ، و تم عليه عبد الله مسعود ، فاحتز رأسه و أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسر بذلك . و عتبة و شيبة ابنا ربيعة و الوليد بن عتبة ، و أمية بن خلف ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فسحبوا إلى القليب ، ثم وقف عليهم ليلاً ، فبكتهم و قرعهم ، و قال : " بس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتوني و صدقني الناس ، و خذلتوني و نصرني الناس — و أخرجتموني و آواني الناس " . ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرة ثلاثاً .

ثم ارتحل بالأسارى و المغانم ، و قد جعل عليها عبد الله بن كعب بن عمرو النجاري . و أنزل الله في غزوة بدر سورة الأنفال ، فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفراء قسم المغانم كما أمره الله تعالى ، وأمر بالنضر بن الحارث فضربت عنقه صبراً ، و ذلك لكثرة فساده و أذاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرثته أخته ، و قيل ابنته قتيبة بقصيدة مشهورة ذكرها ابن هشام ، فلما بلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما زعموا : " لو سمعتها قبل أن أقتله لم أقتله " . و لما نزل عرق الطيبة أمر بعقبة بن أبي معيط فضربت عنقه أيضاً صبراً . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه في الأسارى : ماذا يصنع بهم ؟ فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يقتلوا ، وأشار أبو بكر رضي الله عنه بالقداء ، و هوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، فحلل لهم ذلك وعاتب الله في ذلك بعض المعاتبة في قوله تعالى : " ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * " الآيات . وقد روى مسلم في صحيحه " عن ابن عباس رضي الله عنهما حديثاً طويلاً فيه بيان هذا كله ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداعهم أربعمائة أربعمائة " .

و رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة [مؤيداً] مظفراً منصوراً ، قد أعلى الله كلمته ، و مكن له ، و أعز نصره ، فأسلم حينئذ بشر كثير من أهل المدينة ، و من ثم دخل عبد الله بن أبي بن سلول و جماعته من المنافقين في الدين تقية .

فصل — عدة أهل بدر

وجملة من حضر بدرًا من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً : من المهاجرين ستة و ثمانون رجلاً ، و من الأوس أحد و ستون رجلاً و من الخزرج مائة وسبعون رجلاً .

و إنما قل عدد رجال الأوس عن عدد الخزرج و إن كانوا أشد منهم و أصبر عند اللقاء ، لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة فلما ندبوا للخروج تيسر ذلك على الخزرج لقرب منازلهم .

و قد اختلف أئمة المغازي و السير في أهل بدر : في علقم ، و في تسمية بعضهم ، اختلافاً كثيراً ، و قد ذكرهم الزهري ، و موسى بن عقبة ، و محمد بن إسحق بن يسار ، و محمد بن عمر الواقدي ، و سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه ، و البخاري ، و غير واحد من المتقدمين ، و قد سردهم — كما ذكرهم — ابن حزم في كتاب السيرة له ، و زعم أن ثمانية منهم لم يشهدوا بدرًا بأنفسهم وإنما ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم بأسهمهم ، فذكر منهم : عثمان و طلحة و سعيد بن زيد . و من أجل من اعتنى بذلك من المتأخرين الشيخ الإمام الحافظ ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي رحمه الله تعالى ، فأفرد لهم جزءاً و ضمنه في أحكامه أيضاً .

و أما المشركون فكانت علقم كما قال صلى الله عليه و سلم ما بين التسعمائة إلى الألف .

و قتل من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً : ستة من المهاجرين ، و ستة من الخزرج ، و اثنان من الأوس . و كان أول قتيل يومئذ مهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، و قيل رجل من الأنصار اسمه حارثة بن سراقة .

و قتل من المشركين سبعون ، و قيل : أقل ، و أسر منهم مثل ذلك أيضاً .

و فرغ رسول الله صلى الله عليه و سلم من شأن بدر و الأسرى في شوال .

فصل — غزوة بني سليم

ثم نهض بنفسه الكريمة صلى الله عليه و سلم بعد فراغه بسبعة أيام لغزو بني سليم ، فمكث ثلاثاً ثم رجع و لم يلق حرباً ، و قد كان يستعمل على المدينة سباع بن عرفة و قيل ابن أم مكتوم .

فصل — غزوة السوق

ولما رجع أبو سفيان إلى مكة و أوقع الله في أصحابه بيدرأسه ، نذر أبو سفيان ألا يمسه بماء حتى يغزو رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فخرج في مائتي راكب ، فنزل طرف العريض و بات ليلة واحدة في بني النضير عند سلام بن مشكم ، فسقاه و بطن له من خير الناس ، ثم أصبح في أصحابه ، و أمر فقطع أصواراً من النخل ، و قتل رجلاً من الأنصار و حليفاً له ثم كر راجعاً .

و نذر به رسول الله صلى الله عليه و سلم فخرج في طلبه و المسلمون فبلغ قرقرة الكدر ، و فاته أبو سفيان و المشركون ، و ألقوا شيئاً كثيراً من أزوادهم ، من السوق ، فسميت غزوة السوق ، و كانت في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة ، ثم رجع صلى الله عليه و سلم إلى المدينة ، و قد كان استخلف عليها أبا لبابة .

فصل — غزوة ذي أمر

ثم أقام صلى الله عليه و سلم بقية ذي الحجة ثم غزا نجداً يريد غطفان ، و استعمل على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأقام بنجد صفرًا من السنة الثانية كله ، ثم رجع و لم يلق حرباً

فصل — غزوة بحران

ثم خرج صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول الآخر يريد قريشاً ، واستخلف ابن أم مكتوم فبلغ بحران معدناً في الحجاز ، ثم رجع ولم يلق حرباً .

فصل — غزوة بني قينقاع

و نقض بنو قينقاع — أحد طوائف اليهود بالمدينة — العهد و كانوا تجاراً و صاغة ، و كانوا نحو السبعمئة مقاتل ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم لحصارهم ، واستخلف على المدينة بشير بن عبد المنذر ، فحاصروهم صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة ، و نزلوا على حكمه صلى الله عليه وسلم ، فشفع فيهم عبد الله بن أبي بن سلول ، لأنهم كانوا حلفاء الخزرج ، و هو سيد الخزرج ، فشفعه فيهم بعد ما ألح على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و كانوا في طرف المدينة .

فصل — قتل كعب بن الأشرف

و أما كعب بن الأشرف اليهودي ، فإنه كان رجلاً من طيء ، و كانت أمه من بني النضير ، و كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم و المؤمنين ، و يشب في أشعاره بنساء المؤمنين ، و ذهب بعد وقعة بدر إلى مكة و ألب على رسول الله صلى الله عليه وسلم و على المؤمنين ، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى قتله ، فقال : من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله و رسوله ؟ فانتدب رجال من الأنصار ثم من الأوس و هم محمد بن مسلمة ، و عباد بن بشر بن وقش ، و أبو نائلة ، و اسمه سلكان بن سلامة بن وقش ، و كان أخوا كعب بن الأشرف من الرضاعة ، و الحارث بن أوس بن معاذ ، و أبو عبس بن جبر ، و أذن لهم صلى الله عليه وسلم أن يقولوا ما شاؤوا من كلام يخدعونه به ، و ليس عليهم فيه جناح ، فذهبوا إليه و استنزله من أطمه ليلاً ، و تقدموا إليه بكلام موهم التعريض برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاطمأن إليهم ، فلما استمكنوا منه قتلوه لعنه الله و جاؤوا في آخر الليل ، و كانت ليلة مقمرة ، فانتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو قائم يصلي ، فلما انصرف دعا لهم ، و كان الحارث بن أوس قد جرح بعض سيوف أصحابه ، فتفل عليه الصلاة و السلام على جرحه فبرئ من وقته ، ثم أصبح اليهود يتكلمون في قتله ، فأذن صلى الله عليه وسلم في قتل اليهود .

فصل — غزوة أحد

يشتمل على غزوة أحد مختصرة ، و هي وقعة امتحن الله عز وجل فيها عباده المؤمنين و اختبرهم ، و ميز فيها بين المؤمنين و المنافقين ، و ذلك أن قريشاً حين قتل الله سرائهم بدر ، و أصيبوا بمصيبة لم تكن لهم في حساب ، و رأس فيهم أبو سفيان بن حرب لعدم وجود أكابرهم ، و جاء كما ذكرنا إلى أطراف المدينة في غزوة السويق ، و لم ينل ما في نفسه : شرع يجمع قريشاً و يؤلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم و على المسلمين ، فجمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش و الحلفاء و الأحابيش ، و جاؤوا بنسائهم لئلا يفروا ، ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريباً من جبل أحد بمكان يقال له : عنين ، و ذلك في شوال من السنة الثالثة .

و استشار رسول الله صلى الله عليه و سلم أصحابه : أخرج إليهم أم يمكث في المدينة ؟ فبادر جماعة من فضلاء الصحابة من فاتته الخروج يوم بدر إلى الإشارة بالخروج إليهم ، و ألخوا عليه صلى الله عليه و سلم في ذلك ، و أشار عبد الله بن أبي بن سلول بالمقام بالمدينة ، و تابعه على ذلك بعض الصحابة ، فألح أولئك على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فنهض و دخل بيته و لبس لأمته و خرج عليهم ، و قد انثنى عزم أولئك فقالوا : يا رسول الله ، إن أحبيت أن تمكث في المدينة فافعل . فقال : " ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل " و أتى عليه الصلاة و السلام برجل من بني النجار فصلى عليه ، و ذلك يوم الجمعة ، و استخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

و خرج إلى أحد في ألف ، فلما كان ببعض الطريق انخرل عبد الله بن أبي نحو ثلاثمائة إلى المدينة ، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضي الله عنهما يوجههم و يحضهم على الرجوع ، فقالوا : لو نعلم أنكم تقتاتلون لم نرجع . فلما أبوا عليه رجع عنهم و سبهم . و استقل رسول الله صلى الله عليه و سلم بمن بقي معه حتى نزل شعب أحد في عدوة الوادي إلى الجبل ، فجعل ظهره إلى أحد ، و نهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، فلما أصبح تبعاً عليه الصلاة و السلام للقتال في أصحابه ، و كان فيهم خمسون فارساً ، و استعمل على الرماة — و كانوا خمسين — عبد الله بن جبير الأوسي ، و أمره و أصحابه أن لا يتغيروا من مكائهم ، و أن يحفظوا ظهور المسلمين أن يؤتوا من قبلهم .

و ظاهر صلى الله عليه و سلم (يومئذ) بين درعين .
و أعطى اللواء مصعب بن عمير ، أخا بني عبد الدار ، و جعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام ، و على المجنبة الأخرى المنذر بن عمرو المعنق ليموت .
و استعرض الشباب يومئذ ، فأجاز بعضهم ورد آخرين ، فكان ممن أجاز سمرة بن جندب ، و رافع بن خديج ، و لهما خمس عشرة سنة .
و كان ممن رد يومئذ أسامة بن زيد بن حارثة ، و أسيد بن ظهير ، و البراء بن عازب ، و زيد بن أرقم ، و زيد بن ثابت ، و عبد الله بن عمر ، و غرابة بن أوس ، و عمرو بن حزم . ثم أجازهم يوم الخندق .
و تعبأت قريش أيضاً و هم في ثلاثة آلاف كما ذكرنا ، فيهم مائتا فارس ، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد ، و على اليسرة عكرمة بن أبي جهل .

و كان أول من برز من المشركين يومئذ أبو عامر الراهب ، و اسمه عبد عمرو بن صيفي . و كان رأس الأوس في الجاهلية ، و كان مترهباً ، فلما جاء الإسلام خذل فلم يدخل فيه ، و جاهر رسول الله صلى الله عليه و سلم بالعداوة ، فدعا عليه صلى الله عليه و سلم ، فخرج من المدينة ، و ذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله صلى الله عليه و سلم (و يحضهم على قتاله مع ما هم منطوون على رسول الله) و أصحابه من الحق ، و وعد المشركين أنه يستميل لهم قومه من الأوس يوم اللقاء حتى يرجعوا إليهن فلما أقبل في عبدان أهل مكة و الأحابيش تعرف إلى قومه فقالوا له : لا أنعم الله لك عينا يا فاسق . فقال : لقد أصاب قومي بعدي شر ، ثم قاتل المسلمين قتالاً شديداً .
و كان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم يومئذ (أمت أمت) و أبلى يومئذ أبو دجانة سماك بن خرشة ، و حمزة عم رسول الله صلى الله عليه و سلم ، (أسد الله و أسد رسوله رضي الله عنه و أرضاه) و كذا علي بن أبي طالب ، و جماعة من الأنصار منهم : النضر بن أنس ، و سعد بن الربيع رضي الله عنهم أجمعين . و كانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهمزوا راجعين حتى وصلوا إلى نساينهم .

فلما رأى ذلك أصحاب عبد الله بن جبير قالوا : يا قوم ، الغنيمة الغنيمة . فذكرهم عبد الله بن جبير بتقديم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه في ذلك ، فظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، و أنهم لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك ، فذهبوا في طلب الغنيمة ، و كر الفرسان من المشركين فوجدوا تلك الفرجة قد حلت من الرماة فجاوزوها و تمكنوا ، و أقبل آخريهم ، فكان ما أراد الله تعالى كونه ، فاستشهد من أكرمهم الله بالشهادة من المؤمنين ، فقتل جماعة من أفاضل الصحابة ، و تولى أكثرهم . و خلص المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجرح في وجهه الكريم و كسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر ، و هشمت البيضة على رأسه المقدس ، و رشقه المشركون بالحجارة حتى وقع لشقه ، و سقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق حفرها يكيدها بالمسلمين ، فأخذ علي بيده ، و احتضنه طلحة بن عبيد الله . وكان الذي تولى أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن قمئة و عتبة بن أبي وقاص ، و قيل : إن عبد الله بن شهاب الزهري أبأجد محمد بن مسلم بن شهاب هو الذي شجعه صلى الله عليه وسلم . و قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه بين يديه ، فدفع صلى الله عليه وسلم اللواء إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، و نشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه صلى الله عليه وسلم ، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، و عض عليهما حتى سقطت ثنيتاه ، فكان المهتم بزينه ، و امتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من جرحه صلى الله عليه وسلم .

و أدرك المشركون النبي صلى الله عليه وسلم فحال دونه نفر من المسلمين نحو من عشرة فقتلوا ، ثم جالدهم طلحة حتى أجهدهم عنه صلى الله عليه وسلم ، و ترس أبو دجانة سماك بن خرشة عليه صلى الله عليه وسلم بظهره ، و النبل يقع فيه ، و هو لا يتحرك رضي الله عنه ، و رمى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يومئذ رمياً (مسدداً) منكئاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ارم فذاك أبي و أمي .) و أصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان الظفري ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها عليه الصلاة والسلام بيده الكريمة ، فكانت أصح عينيه و أحسنهما . و صرخ الشيطان — لعنه الله — بأعلى صوته : إن محمداً قد قتل ، و وقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين ، و تولى أكثرهم ، وكان أمر الله . و مر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما تنتظرون ؟ فقالوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما تصنعون في الحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل الناس ، و لقي سعد بن معاذ فقال : يا سعد ، و الله إني لأجد ريح الجنة من قبل أحد ، فقاتل حتى قتل رضي الله عنه ، و وجدت به سبعون ضربة .

و جرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف نحو من عشرين جراحةً ، بعضها في رجله ، فخرج منها حتى مات رضي الله عنه .

و أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو المسلمين ، فكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك رضي الله عنه ، فصاح بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فأشار إليه صلى الله عليه وسلم أن اسكت ، و اجتمع إليه المسلمون ، و هضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه ، فيهم أبو بكر و عمر و علي و الحارث بن الصمة الأنصاري و غيرهم .

فلما أسندوا في الجبل ، أدركه أبي بن خلف على جواد ، يقال له العود ، زعم الخبيث أنه يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما اقترب تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من (يد) الحارث بن الصمة فطعنه بها ، فجاءت في ترقوته ، و يكر عدو الله منهزماً فقال له المشركون : و الله ما بك من بأس ، فقال : و الله لو كان ما بي

بأهل ذي الجواز لما اتوا أجمعون ، إنه قال لي : إنه قاتلي ، ولم يزل به ذلك حتى مات بسرف مرجعه إلى مكة لعنه الله . وجاء علي رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء ليغسل عنه الدم ، فوجده آجناً ، فردّه . و أراد صلى الله عليه وسلم أن يعلو صخرة هناك ، فلم يستطع لما به صلى الله عليه وسلم ، و لأنه ظاهر يومئذ بين درعين ، فجلس طلحة تحته حتى صعد ، وحانت الصلاة ، فصلى جالساً ، ثم مال المشركون إلى رحالهم ، ثم استقبلوا طريق مكة منصرفين إليها ، و كان هذا كله يوم السبت .

و استشهد يومئذ من المسلمين نحو السبعين . منهم حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله وحشي مولى بني نوفل و أعتق لذلك ، و قد أسلم بعد ذلك ، و كان أحد قتلة مسيلمة الكذاب لعنه الله ، و عبد الله بن جحش حليف بني أمية ، و مصعب بن عمير ، و عثمان بن عثمان ، و هو شماس بن عثمان المخزومي ، سني بشماس لحسن وجهه . فهؤلاء أربعة من المهاجرين ، و الباقون من الأنصار رضي الله عنهم جميعهم ، فدفنهم في دمائهم و كلومهم ، و لم يصل عليهم يومئذ .

و فر يومئذ من المسلمين جماعة من الأعيان ، منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ، و قد نص الله سبحانه على العفو عنهم ، فقال عز وجل : " إن الذين تولوا منكم يوم النقي الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم " . وقتل يومئذ من المشركين اثنان و عشرون .

و قد ذكر سبحانه هذه الواقعة في سورة آل عمران حيث يقول : " وإذ غلوت من أهلك تبوء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم * " الآيات .

فصل — غزوة حمراء الأسد

و لما أصبح يوم الأحد ، ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم (المسلمين) إلى النهوض في طلب العدو ، إرهاباً لهم ، و هذه غزوة حمراء الأسد ، و أمر ألا يخرج معه إلا من حضر أحداً ، فلم يخرج إلا من شهد أحداً ، سوى جابر بن عبد الله ، فإنه كان أبوه استخلفه في مهماته ، فقتل أبوه يوم أحد ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى حمراء الأسد ، فأذن له . فنهض المسلمون كما أمرهم صلى الله عليه وسلم ، وهم مثقلون بالجراح ، حتى بلغ حمراء الأسد وهي على ثمانية أميال من المدينة ، فذلك قوله تعالى : " الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم " .

و مر معبد بن أبي معبد النزاعي على رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه فأجاره حتى بلغ أبا سفيان و المشركين بالرواء ، فأخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه قد خرجوا في طلبهم ، ففت ذلك في أعداد قريش ، و كانوا أرادوا الرجوع إلى المدينة فثناها ذلك واستمروا راجعين إلى مكة . و ظفر عليه الصلاة و السلام بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاصي فأمر بضرب عنقه صبراً ، وهو والد عائشة أم عبد الملك بن مران ، فلم يقتل فيها سواه .

فصل — بعث الرجيع

ثم بعث صلى الله عليه وسلم بعد أحد بعث الرجيع ، و ذلك في صفر من السنة الرابعة ، و ذلك أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى عضل و القارة بسؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حين قدموا عليه و ذكروا أن فيهم إسلاماً ، فبعث ستة نفر في قول ابن إسحاق ، و قال البخاري في صحيحه كانوا عشرة . و قال أبو القاسم السهيلي : و هذا هو الصحيح . و أمر عليهم مرثد بن أبي الغنوي رضي الله عنهم . و منهم خبيب بن عدي ، فذهبوا معهم ، فلما كانوا بالرجيع ، و هو ماء هذيل بناحية الحجاز بالهدأة غدروا بهم ، واستصرخوا عليهم هزلاً ، فجأؤوا فأحاطوا بهم فقتلوا عامتهم ، و استأسر منهم خبيب بن عدي و رجل آخر و هو زيد بن الدثنة فذهبوا بهما فباعوهما بمكة ، و ذلك بسبب ما كانا قتلا من كفار قريش من يوم بدر . فأما خبيب رضي الله عنه فمكث عندهم مسجوناً ثم أجمعوا لقتله فخرجوا به إلى التنعيم ليصلبوه فاستأذنهم أن يصلي ركعتين فأذنوا له : فصلاهما ثم قال : و الله لولا أن تقولوا أن ما بي جزع لزدت ، ثم قال :

و لست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان الله مصرعي
و ذلك في ذات الإله و إن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع
ثم و كلوا به من يجرسه ، فجاء عمرو بن أمية فاحتمله بخدعة ليلاً فذهب به فدفنه .
و أما زيد بن الدثنة رضي الله عنه فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه .
و قد قال له أبو سفيان : أيسرك أن محمداً عندنا تضرب عنقه ، و أنك في أهلك ؟ فقال : و الله ما يسرنني أني في أهلي و أن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه .

فصل — بعث بئر معونة

و في صفر هذا بعث إلى بئر معونة أيضاً ، و ذلك أن أبا براء عامر بن مالك للدعو ملاعب الأسنة ، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم و لم يبعد . فقال : يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم ، فقال : إني أخاف عليهم أهل نجد ، فقال أبو براء : أنا جار لهم .

فبعث صلى الله عليه وسلم فيما قاله ابن إسحاق أربعين رجلاً من الصحابة ، و في الصحيحين سبعين رجلاً ، و هذا هو الصحيح . و أمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة ، و لقبه المعنق ليموت رضي الله عنهم أجمعين ، و كانوا من فضلاء المسلمين و سادتهم و قرائهم ، فنهضوا فنزلوا بئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر و حرة بني سليم ، ثم بعثوا منها حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه ، و أمر به فقتله رجل ضربه بحربة ، فلما خرج الدم قال : فزت و رب الكعبة . و استنفر عدو الله عامر : بني عامر إلى قتال الباقيين ، فلم يجيبوه ، لأجل جوار أبي براء ، فاستنفر بني سليم فأجابته عصية و رعل و ذكوان ، فأحاطوا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم رضي الله عنهم ، إلا كعب بن زيد من بني النجار فإنه ارتث من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق .

و كان عمرو بن أمية الضمري و المنذر بن محمد بن عقبة في سرح المسلمين ، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة ، فنزل المنذر بن محمد هذا فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه ، و أسر عمرو بن أمية ، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته و أعتقه فيما زعم عن رقبة كانت على أمه .

و رجع عمرو بن أمية ، فلما كان بالقرقرة من صدر قناة نزل في ظل ، و يجيء رجالان من بني كلاب ، و قيل من بني سليم فنزلا معه فيه ، فلما ناما فتنك بهما عمرو و هو يرى أنه قد أصاب ثأراً من أصحابه ، وإذا بهما عهد من رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يشعر به ، فلما قدم أخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم بما فعل ، قال : [لقد قتلت قتيلين لأدينيهما] . و كان هذا سبب غزوة بني النضير كما ورد هذا في الصحيح .

فصل — غزوة بني النضير

و نهض رسول الله صلى الله عليه و سلم بنفسه الكريمة إلى بني النضير ليستعين على ذينك القتيلين لما بينه و بينهم من الحلف ، فقالوا : نعم . و جلس صلى الله عليه و سلم هو و أبو بكر و عمر و علي و طائفة من أصحابه رضي الله عنهم تحت جدار لهم ، فاجتمعوا فيما بينهم و قالوا : من رجل يلقي بهذه الرحا على محمد فيقتله ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش لعنه الله و أعلم الله رسوله بما هموا به ، فنهض صلى الله عليه و سلم من وقته من بين أصحابه ، فلم يتناه دون المدينة ، و جاء من أخبر أنه رآه صلى الله عليه و سلم داخلاً في حيطان المدينة ، فقام أبو بكر و من معه فاتبعوه ، فأخبرهم بما أعلمه الله من أمر يهود ، فندب الناس إلى قتالهم ، فخرج و استعمل على المدينة ابن أم مكتوم و ذلك في ربيع الأول فحاصروهم ست ليال منه و حينئذ حرمت الخمر ، كذا ذكره ابن حزم ، و لم أره لغيره .

و دس عبد الله بن أبي بن سلول و أصحابه من المنافقين إلى بني النضير : أنا معكم نقاتل معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . فاغتر أولئك بهذا ، فتحصنوا في آطامهم ، فأمر صلى الله عليه و سلم بقطع نخيلهم و إحراقها ، فسألوا رسول الله أن يجليهم و يحقن دماءهم على أن لهم ما حملت إبلهم غير السلاح فأجابهم إلى ذلك ، فحمل أكابرهم كحيي بن أخطب ، و سلام بن أبي الحقيق بأهليهم و أموالهم إلى خير فدان لهم ، و ذهبت طائفة منهم إلى الشام و لم يسلم منهم إلا رجالان ، وهما أبو سعد بن و هب ، و يامين بن عمير بن كعب ، و كان قد جعل لمن قتل ابن عمه عمرو بن جحاش جعلاً ، لما كان قد هم به من الفتك برسول الله صلى الله عليه و سلم ، فأحزا أموالهما ، و قسم رسول الله أموال الباقيين بين المهاجرين الأولين خاصة ، إلا أنه أعطى أبا دجاجة و سهل بن حنيف الأنصارين لفقرهما ، و قد كانت أموالهم مما أفاء الله على رسوله ، فلم يوجف للمسلمون بخيل و لا ركاب . و في هذه الغزوة أنزل الله سبحانه سورة الحشر ، و قد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يسميها سورة بني النضير .

فصل — غزوة ذات الرقاع

و قنت رسول الله صلى الله عليه و سلم شهراً يدعو على الذين قتلوا القراء أصحاب بئر معونة . ثم غزا صلى الله عليه و سلم غزوة ذات الرقاع ، و هي [غزوة نجد] فخرج في جهادى الأولى من هذه السنة الرابعة يريد محارب بني ثعلبة بن سعد بن غطفان ، و استعمل على المدينة أبا ذر الغفاري . فسار حتى بلغ نخلاً ، فلقي جمعاً من غطفان فتوقفوا ، و لم يكن بينهم قتال ، إلا أنه صلى يومئذ صلاة الخوف فيما ذكره ابن إسحاق و غيره من أهل السير ، و قد استشكل لأنه قد جاء في رواية الشافعي و أحمد و النسائي عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه و سلم حبسه المشركون يوم الخندق عن الظهر و العصر و المغرب والعشاء فصلاهن جميعاً ، و ذلك قبل نزول صلاة الخوف ،

قالوا و إنما نزلت صلاة الخوف بعسفان كما رواه أبو عياش الزرقعي قال : كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم بعسفان فصلى بنا الظهر ، و على المشركين يومئذ خالد بن الوليد . فقالوا : لقد أصبنا منهم غفلة ، ثم قالوا : إن لهم صلاة بعد هذه هي أحب إليهم من أموالهم و أبنائهم فنزلت — يعني صلاة الخوف — بين الظهر و العصر . فصلى بنا العصر ففرقنا فريقين .. و ذكر الحديث . أخرجه الإمام أحمد و أبو داود و النسائي . و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم نازلاً بين ضحجان و عسفان ، محاصراً المشركين ، فقال للمشركون : إن هؤلاء صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم و إبنكارهم ، أجمعوا أمركم ثم ميلوا عليهم ميلاً واحدة . فجاء جبريل عليه السلام فأمره أن يقسم أصحابه نصفين ... و ذكر الحديث . رواه النسائي و الترمذي و قال : حسن صحيح .

و قد علم بلا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق ، فافتضى هذا أن ذات الرقاع بعدها ، بل بعد خيبر ، و يؤيد ذلك أن أبا موسى الأشعري و أبا هريرة رضي الله عنهما شهدا ، أما أبو موسى الأشعري ففي الصحيحين عنه أنه شهد غزوة ذات الرقاع ، و أنهم كانوا يلفون على أرجلهم الخرق لما نقت ، فسميت بذلك ، فأما أبا هريرة فعن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة : هل صليت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم صلاة الخوف ؟ قال : نعم . قال : متى ؟ قال : عام غزوة نجد و ذكر صفة من صفات صلاة الخوف ، أخرجه الإمام أحمد و أبو داود و النسائي .

و قد قال بعض أهل التاريخ : إن غزوة ذات الرقاع أكثر من مرة واحدة كانت قبل الخندق و أخرى بعدها ، قلت : إلا أنه لا يتجه أنه صلى في الأولى صلاة الخوف إن صح حديث أنها إنما فرضت في عسفان . و قد ذكروا أنه كانت من الحوادث في هذه الغزوة قصة جمل جابر و بيعه من رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و في ذلك نظر ، لأنه جاء أن ذلك كان في غزوة تبوك ، إلا أن هذا أنسب لما أنه كان قد قتل أبوه في أحد ، و ترك الأخوات ، فاحتاج أن يتزوج سريعاً من يكفلهن له . و منها حديث جابر أيضاً في الرجل الذي سبوا امرأته فحلف ليهريقن دماً في أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم ، فجاء ليلاً — و قد أُرصد رسول الله صلى الله عليه و سلم رجلين ريثة للمسلمين من العدو ، وهما عباد بن بشر و عمار بن ياسر رضي الله عنه — فضرب عباداً بن بشر بسهم و هو قائم يصلي ، فنزعه و لم يطل صلاته ، حتى رشقه بثلاثة أسهم ، فلم ينصرف منها حتى سلم ، و أنبه صاحبه ، فقال : سبحان الله هلا أنبهتني ؟ ! فقال : إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها .

و منها حديث غورث بن الحارث الذي هم برسول الله صلى الله عليه و سلم و هو قائل تحت الشجرة ، فاستل سيفه و أراد ضربه ، فصده الله عنه ، و حبست يده ، و استيقظ رسول الله صلى الله عليه و سلم من نومه ، فدعا أصحابه فاجتمعوا إليه ، فأخبرهم عنه و ما هم به غورث من قتله ، و مع هذا كله أطلقه و عفا عنه صلى الله عليه و سلم . و هذا كان في غزوة ذات الرقاع ، إلا أنها التي بعد الخندق كما أخرجاه في الصحيحين ، " عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى إذا كنا بذات الرقاع ، قال : كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، قال فجاء رجل من المشركين و سيف رسول الله صلى الله عليه و سلم معلق بالشجرة ، فأخذ السيف ، فاختارطه ، فقال لرسول الله صلى الله عليه و سلم : أتخافني ؟ قال : لا ، قال فمن يمنعك مني ؟ قال : الله . قال : فتهدده أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فأغمد

السيف وعلقه ، قال : فنودي بالصلاة ، فصلى بطائفة ركعتين ، ثم تأخروا و صلى بالطائفة الأخرى ركعتين ، و كانت لرسول الله أربع ركعات ، و للقوم ركعتان " . و اللفظ لمسلم .

فصل — غزوة بدر الصغرى

و قد كان أبو سفيان يوم أحد عند منصرفه نادى : موعدكم و إيانا بدر العام المقبل ، فأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بعض أصحابه أن يجيبه بنعم ، فلما كان شعبان في هذه السنة نهض رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى أتى بدرًا للموعد ، و استخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي ، فأقام هناك ثمانى ليال ، ثم رجع و لم يلق كيداً ، و ذلك أن أبا سفيان خرج بقريش ، فلما كان ببعض الطريق بدا لهم الرجوع لأجل جذب سنتهم فرجعوا ، و هذه الغزوة تسمى بدرًا الثالثة و بدر الموعد .

فصل — غزوة دومة الجندل

و خرج صلى الله عليه و سلم إلى دومة الجندل في ربيع الأول من سنة خمس ، ثم رجع في أثناء الطريق و لم يلق حرباً ، و كان يستعمل على المدينة سباع بن عرفة .

فصل — غزوة الخندق

يشتمل على ملخص غزوة الخندق التي ابلى الله فيها عباده المؤمنين و زلزمهم ، و ثبت الإيمان في قلوب أوليائه و أظهر ما كان يبطنه أهل النفاق ، و فضحهم و قرعهم . ثم أنزل نصره ، و نصر عبده ، و هزم الأحزاب و حده ، و أعز جنده ، ورد الكفرة بغيظهم ، و وقى المؤمنين شر كيدهم ، و ذلك بفضلهم منه . و حرم عليهم شرعاً و قدراً أن يغزوا المؤمنين بعلمها ، بل جعل المغلوبين و جعل حزبه هم الغالبين ، و الحمد لله رب العالمين .

و كانت في سنة خمس في شوالها على الصحيح من قولي أهل المغازي والسير ، و الدليل على ذلك أنه لا خلاف أن أحداً كانت في شوال من سنة ثلاث ، و قد تقدم ما ذكره أهل العلم في المغازي أن أبا سفيان و أعدهم العام المقبل بدرًا ، و أنه صلى الله عليه و سلم خرج إليهم فأخلفوه لأجل جذب تلك السنة في بلادهم ، فتأخروا إلى هذا العام .

قال أبو محمد بن حزم الأندلسي في مغازيه : هذا قول أهل المغازي ، ثم قال : و الصحيح الذي لا شك فيه أنها في سنة أربع ، و هو قول موسى بن عقبة ، ثم احتج ابن حزم بحديث ابن عمر : [عرضت على النبي صلى الله عليه و سلم يوم أحد و أنا ابن أربع عشرة فلم يجزني ، و عرضت عليه يوم الخندق و أنا ابن خمس عشرة فأجازني] . فصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة فقط .

قلت : هذا الحديث مخرج في الصحيحين و ليس يدل على ما ادعاه لأن مناط إجازة الحرب كانت عنده صلى الله عليه و سلم خمس عشرة سنة ، فكان لا يجيز من لم يبلغها ، و من بلغها أجازها ، فلما كان ابن عمر يوم أحد من لم يبلغها لم يجزه ، ولما كان قد بلغها يوم الخندق أجازها ، و ليس ينفي هذا أن بلوغه قد زاد عليها بسنة أو بسنتين أو ثلاثاً أو أكثر من ذلك . فكأنه قال : عرضت عليه يوم الخندق و أنا بالغ أو من أبناء الحرب . و قد قيل : إنه كان

يوم أحد في أول الرابعة عشرة من عمره و في يوم الخندق في آخر الخامسة عشرة ، و في هذا نظر ، والأول أقوى في النظر لمن أمعن و أنصف ، و الله أعلم . و كان سبب غزوة الخندق أن نفرأ من يهود بني النضير الذين أجلاهم صلى الله عليه و سلم من المدينة إلى خيبر كما قدمنا و هم أشرافهم : كسلام بن أبي الحقيق ، و سلام بن مشكم ، و كنانة بن الربيع و غيرهم ، خرجوا إلى قريش بمكة فألبوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه و سلم و وعدوهم من أنفسهم النصر ، فأجابوهم ، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فأجابوهم أيضاً ، و خرجت قريش و قائلهم أبو سفيان بن حرب ، و على غطفان عيينة بن حصن ، كلهم في نحو عشرة آلاف رجل . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم بمسيرهم إليه أمر المسلمين بحفر خندق يحول بين المشركين و بين المدينة ، و كان ذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فعمل المسلمون فيه مبادرين هجوم الكفار عليهم ، و كانت في حفره آيات مفصلة يطول شرحها ، و أعلام نوة قد تواتر خبرها ، فلما كمل قدم المشركون ، فنزلوا حول المدينة كما قال تعالى : " إذ جاءوكم من فوقكم و من أسفل منكم " .

و خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم فتحصن بالخندق و هو في ثلاثة آلاف على الصحيح من أهل المدينة . و زعم ابن إسحاق أنه إنما كان في سبعمائة . و هذا غلط من غزوة أحد ، و الله تعالى أعلم . فجعلوا ظهورهم إلى سلع . و أمر صلى الله عليه و سلم بالنساء و الذراري ، فجعلوا في آطام المدينة ، و استخلف عليها ابن أم مكتوم رضي الله عنه .

و انطلق حيي بن أخطب النضري إلى بني قريظة ، فاجتمع بكعب بن أسد رئيسهم ، فلم يزل به حتى نقض العهد الذي كان بينه و بين رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و وافق كعب المشركين على حرب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ففسروا بذلك .

و بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم السعديين : ابن معاذ ، و ابن عباد ، و خوات بن جبير ، و عبد الله بن رواحة ، ليعرفوا له هل تقض بنو قريظة العهد أو لا ، فلما قربوا منهم و جدوهم مهاجرين بالعداوة و الغدر ، فتساووا و نال اليهود — عليهم لعائن الله — من رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فسيهم سعد بن معاذ ، و انصرفوا عنهم . و قد أمرهم صلى الله عليه و سلم إن كانوا نقضوا أن لا يفتوا بذلك في أعضاد المسلمين ، لنلا يورث وهنا ، و أن يلحقوا إليه لحناً — أي لغزاً — فلما قدموا عليه ، قال : ما وراءكم ؟ قالوا : عضل و القارة ، يعنون غدرهم بأصحاب الرجيع ، فعظم ذلك على المسلمين ، واشتد الأمر ، و عظم الخطر ، و كانوا كما قال الله تعالى : " هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً " .

و نجم النفاق و كثر ، و استأذن بعض بني حارثة رسول الله صلى الله عليه و سلم في الذهاب إلى المدينة لأجل بيوتهم ، قالوا : إنما عورة ، و ليس بينها و بين العدو حائل ، و هم بنو سلمة بالقشل ، ثم ثبت الله كلتا الطائفتين .

و ثبت المشركون محاصرين رسول الله صلى الله عليه و سلم شهراً ، ولم يكن بينهم قتال لأجل ما حال الله به من الخندق بينه و بينهم ، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود العامري و جماعة معه أقبلوا نحو الخندق ، فلما وقفوا عليه قالوا : إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تعرفها ، ثم يمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه و جازوه ، و جالت بهم خيلهم في السيخة بين الخندق و سلع و دعوا للبراز ، فانتدب لهمرو بن عبد ود علي بن أبي طالب رضي الله عنه فبارزه فقتله الله على يديه و كان عمرو لا يجاري في الجاهلية شجاعة ، و كان شيخاً قد جاوز المائة يومئذ ، و أما الباقيون فينطلقون راجعين إلى قومهم من حيث جاؤوا ، و كان هذا أول ما فتح الله

به من خذلانهم . وكان شعار المسلمين تلك الغزوة (حم ، لا ينصرون) ..
ولما طال هذا الحال على المسلمين أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصالح عيينة بن حصن و الحارث بن عوف رئيسي غطفان ، على ثلث ثمار المدينة و ينصرفا بقومهما ، و جرت المفاوضة على ذلك و لم يتم الأمر حتى استشار صلى الله عليه وسلم السعديين في ذلك فقالا : يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً و طاعة و إن كان شيئاً تصنعه لنا فلقد كنا نحن و هؤلاء القوم على الشرك بالله و عبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له و أعزنا بك و به نعطيتهم أموالنا ؟ و الله لا نعطيتهم إلا السيف . فقال صلى الله عليه وسلم : (إنما هو شيء أصنعه لكم) و صوب رأيهما في ذلك رضي الله عنهما ، ولم يفعل من ذلك شيئاً .

ثم إن الله سبحانه وله الحمد صنع أمراً من عنده خذل به بينهم و فل جموعهم ، و ذلك أن نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني رضي الله عنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و قال : يا رسول الله إني قد أسلمت فمرني بما شئت ، فقال صلى الله عليه وسلم : " إنما أنت رجل واحد فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة " . فذهب من حينه ذلك إلى بني قريظة — و كان عشيراً لهم في الجاهلية — فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال يا بني قريظة ! إنكم قد حاربتهم محمداً ، و إن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها ، و إلا شمروا إلى بلادهم و تركوكم و محمداً فانتقم منكم . قالوا : فما العمل يا نعيم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا لقد أشرت بالرأي .

ثم نهض إلى قريش فقال لأبي سفيان و لهم : تعلمون ودي و نصحي لكم ؟ قالوا نعم . قال : إن يهود ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد و أصحابه ، و إنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالونه عليكم . ثم ذهب إلى قومه غطفان فقال لهم مثل ذلك .

فلما كان ليلة السبت في شوال بعثوا إلى يهود : إنا لسنا بأرض مقام فأنهضوا بنا غداً نأجز هذا الرجل ، فأرسل إليهم اليهود : إن اليوم يوم السبت ، و مع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهناً ، فلما جاءهم الرسل بذلك قالت قريش : صدقنا و الله نعيم بن مسعود ، و بعثوا إلى يهود : إنا و الله لا نرسل لكم أحداً فآخروا معنا ، فقالت قريظة : صدق و الله نعيم ، و أبوا أن يقاتلوا معهم .

و أرسل الله عز وجل على قريش و من معهم الخور و الريح تزلزلهم ، فجعلوا لا يقر لهم قرار ، و لا تثبت لهم خيمة و لا طنبة ، و لا قدر و لا شيء . فلما رأوا ذلك ترحلوا من ليلتهم تلك . و أرسل صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان يخبر له خبرهم ، فوجدهم كما وصفنا ، و رأى أبا سفيان يصلي ظهره بنار ، و لو شاء حذيفة لقتله ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً فأخبره برحيلهم .

فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غداً إلى المدينة و قد وضع الناس السلاح فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو يغتسل في بيت أم سلمة ، فقال : أوضعتم السلاح ؟ أما نحن فلم نضع أسلحتنا ، انهض إلى هؤلاء ، يعني بني قريظة .

فصل — غزوة بني قريظة

نذكر فيه غزوة بني قريظة ، فنهض صلى الله عليه وسلم من وقته إليهم ، وأمر المسلمين أن لا يصلي أحد صلاة العصر — وقد كان دخل وقتها — إلا في بني قريظة . فراح المسلمون أرسالاً ، وكان منهم من صلى العصر في الطريق ، وقالوا : لم يرد رسول الله ترك الصلاة ، إنما أراد تعجيل السير ، وكان منهم من لم يصل حتى غربت الشمس ، ووصل إلى بني قريظة ، ولم يعنف صلى الله عليه وسلم واحداً من الفريقين .

قال ابن حزم : وهؤلاء هم للصييون وأولئك مخطئون مأجورون ، وعلم الله لو كنا هناك لم نصل العصر إلا في بني قريظة ولو بعد أيام .

قلت أما ابن حزم فإنه معنور لأنه من كبار الظاهرية ، ولا يمكنه العلول عن هذا النص ، ولكن في ترجيح أحد هذين الفعلين على الآخر نظر و ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لم يعنف أحداً من الفريقين ، فمن يقول بتصويب كل مجتهد ، فكل منهما مصيب ولا ترجيح ، ومن يقول بأن المصيب واحد — وهو الحق لاشك فيه ولامرية ، لدلائل من الكتاب والسنة كثيرة — فلا بد على قوله من أن أحد الفريقين له أجران بإصابة الحق ، ولل فريق الآخر أجر ، فنقول والله التوفيق : الذين صلوا العصر في وقتها حازوا قصب السبق ، لأنهم امتثلوا أمره صلى الله عليه وسلم في المبادرة إلى الجهاد وفعل الصلاة في وقتها ، ولا سيما صلاة العصر التي أكد الله سبحانه إيفاءها في كتابه بقوله تعالى : " حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى " وهي العصر على الصحيح المقطوع به إن شاء الله من بضعة عشر قولاً ، والتي جاءت السنة بإحفاظة عليها . فإن قيل : كان تأخير الصلاة للجهاد حينئذ جائزاً ، كما أنه صلى الله عليه وسلم أخر العصر والمغرب يوم الخندق واشغل بالجهاد ، والظاهر أيضاً كما جاء في حديث رواه النسائي من طريقين ، فالجواب أنه بتقدير تسليم هذا وأنه لم يتركها يومئذ نسياناً ، فقد تأسف على ذلك ، " حيث يقول لما قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ! ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقال والله ما صليتها " وهذا يشعر بأنه صلى الله عليه وسلم كان ناسياً لها لما هو فيه من الشغل ، كما جاء في الصحيحين " عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، مألأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً " .

والحاصل أن الذين صلوا العصر في الطريق جمعوا بين الأدلة ، وفهموا المعنى فلهم الأجر مرتين ، والآخرين حافظوا على أمره الخاص ، فلهم الأجر رضي الله عن جميعهم وأرضاهم .

وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، و نازل حصون بني قريظة و حصرهم خمساً وعشرين ليلة ، و عرض عليهم سيدهم كعب بن أسد ثلاث خصال : إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد في دينه ، وإما أن يقتلوا ذراريهم ويخرجوا جرائد فيقاتلوا حتى يقتلوا عن آخرهم أو يخلصوا فيصيبوا بعد الأولاد والنساء ، وإما أن يهجموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم سبت حين يأمن المسلمون شرهم ، فأبوا عليه واحدة منهم . وكان قد دخل معهم في الحصن حيي بن أخطب حين انصرفت قريش ، لأنه كان أعطاهم عهداً بذلك حتى تقضوا العهد وجعلوا يسيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسمعون أصحابه بذلك ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم ، فقال له علي رضي الله عنه : لا تقرب منهم يا رسول الله — خشية أن يسمع منهم شيئاً — فقال : " لو قد رأوني لم يقولوا شيئاً " ، فلما رأوه لم يستطع منهم أحد أن يتكلم بشيء .

ثم بعث صلى الله عليه وسلم أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسي ، وكانوا حلفاء الأوس ، فلما رأوه قاموا في وجهه

يكون : رجالهم و نساؤهم ، و قالوا : يا أبا لبابة كيف ترى لنا ؟ أنزل على حكم محمد ؟ قال : نعم فأشار بيده إلى حلقه ، يعني أنه الذبح ، ثم ندم على هذه الكلمة من وقته ، فقام مسرعاً فلم يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء مسجد المدينة فربط نفسه بسارية المسجد و حلف لا يحله إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، و أنه لا يدخل أرض بني قريظة أبداً ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال : " دعوه حتى يتوب الله عليه " و كان من أمره ما كان حتى تاب الله عليه رضي الله عنه .

ثم إن بني قريظة نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأسلم ليلثذ ثعلبة و أسيد ابنا سعية ، و أسد بن عبيد ، و هم نفر من بني هديل من بني عم قريظة و النضير ، و خرج في تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظي ، فانطلق ، فلم يعلم أين ذهب و كان قد أبي الدخول معهم في نقض العهد . و لما نزلوا على حكمه صلى الله عليه وسلم ، قالت الأوس : يا رسول الله ، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت و هم حلفاء إخواننا الخرج ، و هؤلاء موالينا ، فقال : " ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ " قالوا : بلى . قال : " فذاك إلى سعد بن معاذ " ، و كان سعد إذ ذاك قد أصابه جرح في أكحله ، و قد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد ، ليعوده من قريب ، فبعث إليه صلى الله عليه وسلم فجاء به و قد وطؤوا له على حمار ، و إخوانه من الأوس حوله محيطون به ، و هم يقولون : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فلما أكثروا عليه ، قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ! ! فرجع رجال من قومه إلى بني عبد الأشهل فنعوا إليهم بني قريظة ، فلما دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " قوموا إلى سيدكم " فقام إليه المسلمون ، فقالوا : يا سعد ، قد ولاك رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم في بني قريظة ، فقال : عليكم بذلك عهد الله و ميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت ؟ قالوا : نعم . قال : و على من هاهنا ؟ و أشار إلى الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و هو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم " . فقال سعد : إني أحكم فيهم أن يقتل مقاتلتهم ، و تسي ذراريهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة " . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل من أنبت منهم ، و من لم يكن أنبت ترك ، فضرب أعناقهم في خنادق حفرت في سوق

المدينة اليوم ، و كانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة ، و قيل : ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ، و لم يقتل من النساء أحداً سوى امرأة واحدة و هي بنانة امرأة الحكم القرظي ، لأنها كانت طرحت على راس خلاد بن سويد رحي فقتلته لعنها الله . و قسم أموال بني قريظة على المسلمين للراجل سهم و للفارس ثلاثة أسهم ، و كان في المسلمين يومئذ ستة و ثلاثون فارساً .

و لما فرغ منهم استجاب الله دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ ، و ذلك أنه لما أصابه الجرح قال : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقي لها ، و إن كنت رفعت الحرب بيننا و بينهم فافجرها ، و لا تمتني حتى تشفيني من بني قريظة . و كان صلى الله عليه وسلم قد حسم جرحه فانفجر عليه فمات منه رضي الله عنه ، و شيعه رسول الله صلى الله عليه وسلم و المسلمون ، وهو الذي اهتز له عرش الرحمن فرحاً بقدوم روحه رضي الله عنه و أرضاه . و قد استشهد يوم الخندق و يوم قريظة نحو العشرة رضي الله عنهم آمين .

فصل — بعث عبد الله بن عتيك إلى قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق

ولما قتل الله — وله الحمد — كعب بن الأشرف على يد رجال من الأوس كما قدمنا ذكره بعد وقعة بدر ، و كان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق ممن ألب الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه و سلم و لم يقتل مع بني قريظة كما قتل صاحبه حيي بن أخطب ، رغبت الخزرج في قتله طلباً لمساواة الأوس في الأجر . و كان الله سبحانه قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدي رسول الله صلى الله عليه و سلم في الخيرات ، فاستأذنوا رسول الله في قتله فأذن لهم ، فانتدب له رجال كلهم من بني سلمة و هم : عبد الله بن عتيك و هو أمير القوم بأمره صلى الله عليه و سلم ، و عبد الله بن أنيس ، و أبو قتادة الحارث بن ربعي ، و مسعود بن سنان ، و خزاعي بن أسود ، حليف لهم . فنهضوا حتى أتوه في خير في دار له جامعة ، فنزلوا عليه ليلاً فقتلوه و رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ، كلهم ادعى قتله ، " فقال : (أروني أسيافكم) فلما أروه قال لسيف عبد الله بن أنيس : (هذا قتله أرى فيه أثر الطعام) . " و كان عبد الله بن أنيس قد اتكأ عليه بالسيف حتى سمع صوت عظم ظهره ، و عدو الله يقول : قطني قطني ، يقول : حسبي .

فصل — غزوة بني لحيان

ثم خرج صلى الله عليه و سلم بعد قريظة بستة أشهر ، و ذلك في جمادى الأولى من السنة السادسة على الصحيح قاصداً بني لحيان ليأخذ ثار أصحاب الرجيع المتقدم ذكرهم ، فسار حتى نزل بلادهم في واد يقال له غران ، و هو بين أمج و عسفان ، فوجدهم قد تحصنوا في رؤوس الجبال ، فتركهم و ركب في مائتي فارس حتى نزل عسفان و بعث فارسين حتى نزلا كراع الغميم ، ثم كرا راجعين ، ثم قفل صلى الله عليه و سلم إلى المدينة .

فصل — غزوة ذي قرد

ثم أغار بعد قدومه المدينة بليال عيينه بن حصن في بني عبد الله بن غطفان ، على لقاح النبي صلى الله عليه و سلم التي بالغة فاستاقها و قتل راعيها ، و هو رجل من غفار ، و أخذوا امرأته . فكان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي رضي الله عنه ، ثم انبعث في طلبهم ماشياً و كان لا يسبق ، فجعل يرميهم بالنبل و يقول : خذها أنا ابن الأكوع و اليوم يوم الرضع يعني اللثام ، و استرجع عامة ما كان في أيديهم .

ولما وقع الصريخ في المدينة خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم في جماعة من الفرسان ، فلحقوا سلمة بن الأكوع ، و استرجعوا اللقاح ، و بلغ النبي صلى الله عليه و سلم ماءً يقال له ذو قرد ، فنحر لقحة مما استرجع ، و أقام هناك يوماً و ليلة ، ثم رجع إلى المدينة .

و قتل في هذه الغزوة الأخرم ، و هو محرز بن نضلة رضي الله عنه ، قتله عبد الرحمن بن عيينة ، و تحول على فرسه ، فحمل على عبد الرحمن أبو قتادة فقتله ، و استرجع القرس ، و كانت لخمود بن مسلمة و أقبلت المرأة المأسورة على ناقة لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، و قد نذرت : إن الله أنجاها عليها لتحررها ، " فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : بنس ما جزئها ، لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ، و لقي معصية " و أخذ ناقته . و قد روى مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع في هذه القصة ، قال : فرجعنا إلى المدينة ، فلم نلبث إلا ثلاث ليال ، حتى خرجنا إلى خير ، و لعل هذا هو الصحيح ، و الله تعالى أعلم .

فصل — غزوة بني المصطلق

و غزا صلى الله عليه و سلم بني المصطلق من خزاعة في شعبان من السنة السادسة ، و قيل : كانت في شعبان سنة خمس ، و الأول أصح و هو قول ابن إسحاق و غيره .

و استعمل على المدينة أبا ذر ، و قيل : نميلة بن عبد الله الليثي ، فأغار عليهم وهم غارون على ماء لهم يسمى المريسي ، و هو من ناحية قديد إلى الساحل ، فقتل من قتل منهم ، و سبي النساء و الذرية ، و كان شعار المسلمين يومئذ : أمت أمت .

و كان من السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ملك بني المصطلق ، وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبها ، فأدى عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم و تزوجها ، فصارت أم المؤمنين ، فأعتق المسلمون بسبب ذلك مائة بيت من بني المصطلق قد أسلموا .

و في مرجعه صلى الله عليه و سلم قال : الخبيث عبد الله بن أبي بن سلول : لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل ، يعرض برسول الله صلى الله عليه و سلم ، فبلغها زيد بن أرقم رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و جاء عبد الله بن أبي معترداً و يحلف ما قال فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى أنزل الله عز و جل تصديق زيد بن أرقم في سورة المنافقين .

و كان في هذه الغزوة من الحوادث قصة الإفك الذي افتراه عبد الله بن أبي هذا الخبيث و أصحابه ، و ذلك أن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنها كانت قد خرجت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في هذه السفرة ، و كانت تحمل في هودج ، فنزلوا بعض المنازل ثم أرادوا أن يرحلوا أول النهار فلنبت إلى المتبرز ، ثم رجعت فإذا هي فاقدة عقد لأختها أسماء كانت أعارتها إياه ، فرجعت تلتمس في الموضع الذي كانت فيه ، فجاء نفر الذين كانوا يرحلون بها فحملوا الهودج ، حملة رجل واحد ، و ليس فيه أحد ، فرحلوه على البعير و لم يستكروا خفته لتساعدهم عليه ، و لأن عائشة رضي الله عنها كانت في ذلك الوقت لم تحمل اللحم ، بل كانت طفلة في سن أربع عشرة سنة . فلما رجعت وقد أصابت العقد لم تر بالمنزل أحداً ، فجلست في المنزل و قالت : إنهم سيفقدونها فيرجعون إليها ، و الله غالب على أمره و له الحكم فيما يشاء . و أخذتها سنة من النوم فلم تستيقظ إلا بترجيع صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني ، و كان قد عرس في أخريات القوم ، لأنه كان شديد النوم كما جاء ذلك عنه في رواية أبي داود ، فلما رأى أم المؤمنين قال : إنا لله و إنا إليه راجعون ، زوجة رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟! ثم أناخ بعيره فقر به إليها ، فركبته ، ولم يكلمها كلمة واحدة ، ولم تسمع منه إلا ترجيعه ، ثم سار بها يقودها حتى قدم بها و قد نزل الجيش في نحر الظهر .

فلما رأى ذلك الناس تكلم المنافقون بما الله مجازيهم به ، و جعل عبد الله بن أبي الخبيث مع ما تقدم له من الخزي في هذه الغزوة يتكلم في ذلك و يستحكيه ، و يظهره و يشيعه و يديه . و كان الأمر في ذلك كما هو مطول في الصحيحين من حديث الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص الليثي ، و عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، كلهم عن عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سماوات مما اتهمها به أهل الإفك في هذه الغزوة في قوله تعالى : " إن الذين جاوزوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم " الآيات . فلما أنزل الله تعالى ذلك و كان بعد قدومهم من هذه الغزوة بأكثر من شهر . جلد الذين تكلموا في الإفك ، و كان ممن جلد مسطح بن أثانة ، و حنة بنت جحش .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك صعد على المنبر فخطب المسلمين واستعذر من عبد الله بن أبي وأصحابه ، " فقال : من يعذريني من رجل بلغني أذاه في أهلي ؟ و الله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، و ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، و ما يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال : يا رسول الله ، أنا أعذرك منه ، فإن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة فقال كذبت لعمر الله لا تقتله و لا تستطيع قتله ، و لو كان من رهطك لما أحببت أن يقتل . فقال أسيد بن الحضير : و الله لنقتله ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين فتشاور الحيان حتى كادوا يقتتلون ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم و يسكنهم حتى سكنوا .. الحديث .

هكذا وقع في الصحيحين أن المقاتل لسعد بن عبادة هو سعد بن معاذ ، و هذا من المشكلات التي أشكلت على كثير من أهل العلم بالمغازي ، فإن سعد بن معاذ لا يختلف أحد منهم أنه مات إثر قريظة ، و قد كانت عقب الخندق ، وهي سنة خمس على الصحيح . ثم حديث الإفك لا يشك أنه في غزوة بني المصطلق هذه ، وهي غزوة المريسيع . وقال الزهري : في غزوة المريسيع . و قد اختلف الناس في الجواب عن هذا ، فقال موسى بن عقبة فيما حكاه البخاري عنه : إن غزوة المريسيع كانت في سنة أربع ، وهذا خلاف الجمهور ، ثم في الحديث ما ينفي ما قال ، لأنها قالت : و ذلك بعد ما أنزل الحجاب ، و لا خلاف أنه نزل صبيحة دخوله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ، و قد سأل صلى الله عليه وسلم زينب عن شأن عائشة في ذلك ، فقالت : أحي سمعي و بصري . قالت عائشة : و هي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم . و قد ذكر أهل التواريخ أن تزويجهما كان في ذي القعدة في سنة خمس فبطل ما كان و لم ينجل الإشكال . و أما الإمام محمد بن إسحاق بن يسار فقال : إن غزوة بني المصطلق كانت في سنة ست ، و ذكر فيها حديث الإفك ، إلا أنه قال : عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة ، فذكر الحديث . قال : فقام أسيد بن الحضير فقال : أنا أعذرك منه و لم يذكر سعد بن معاذ . قال أبو محمد بن حزم : و هذا الصحيح الذي لا شك فيه ، و ذلك عندنا و هم .. و بسط الكلام في ذلك مع اعترافه بأن ذكر سعد جاء من طرق صحاح . قلت : و هو كما قال إن شاء الله . و قد وقع من هذا النمط في الحديث مما لا يغير حكماً أحاديث ذوات عدد ، و قد نبه الناس على أكثرها ، و قد حاول بعضهم أجوبة لها فتعسف ، و الله سبحانه و تعالى أعلم .

فصل — غزوة الحديبية

و لما كان ذو القعدة من السنة السادسة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمراً في ألف و نيف قيل : و خمسمائة ، و قيل : و أربعمائة ، و قيل : و ثلاثمائة ، و قيل : غير ذلك . فأما من زعم أنه إنما خرج في سبعمائة فقط غلط . فلما علم المشركون بذلك جمعوا أحايثهم و خرجوا من مكة صادين له عن الاعتمار هذا العام ، و قدموا على خيل لهم خالد بن الوليد إلى كراع الغميم . و خالفه صلى الله عليه وسلم في الطريق فانتهى صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية ، و ترأس هو و المشركون حتى جاء سهيل بن عمرو فصالحه على : أن يرجع عنهم عامهم هذا و أن يعتمر من العام المقبل ، فأجابه صلى الله عليه وسلم إلى ما سأل ، لما جعل الله عز

وجل في ذلك من المصلحة و البركة ، و كره ذلك جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، منهم : عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، و راجع أبا بكر الصديق في ذلك ، ثم راجع النبي صلى الله عليه و سلم ، فكان جوابه صلى الله عليه و سلم ، كما أجابه الصديق رضي الله عنه ، و هو أنه عبد الله و رسوله و ليس يضيعه ، و هو ناصره . وقد استقصى البخاري هذا الحديث في صحيحه .

فقاضاه سهيل بن عمرو على :

أن يرجع عنهم عامه هذا ، و أن يعتمر من العام المقبل على أن لا يدخل مكة ألا في جلبان السلاح ، و أن لا يقيم عندهم أكثر من ثلاثة أيام .

و على أن يأمن الناس بينهم و بينه عشر سنين .

فكانت هذه الهدنة من أكبر الفتوحات للمسلمين كما قال عبد الله مسعود رضي الله عنه .

و على أنه من شاء دخل في عقد رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و من شاء دخل في عقد قريش . و على أنه لا يأتيه أحد منهم و إن كان مسلماً إلا رده إليهم ، و إن ذهب أحد من المسلمين إليهم لا يردونه إليه . فأقر الله سبحانه ذلك كله إلا ما استثنى من المهاجرات المؤمنات من النساء : فإنه نهاهم عن ردهن إلى الكفار ، و حرمن على الكفار يومئذ ، و هذا أمر عزيز ما يقع في الأصول ، و هو تخصيص السنة بالقرآن ، و منهم من عده نسخاً ، كمذهب أبي حنيفة و بعض الأصوليين ، و ليس هو الذي عليه أكثر المتأخرين ، و النزاع في ذلك قريب ، إذ يرجع حاصله إلى مناقشة في اللفظ . و قد كان صلى الله عليه و سلم قبل وقوع هذا الصلح بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أهل مكة يعلمهم أنه لم يجيء لقتال أحد و إنما جاء معتمراً ، فكان من سيادة عثمان رضي الله عنه أنه عرض عليه المشركون الطواف بالبيت ، فأبى عليهم و قال : لا أطوف بها قبل رسول الله صلى الله عليه و سلم . و لم يرجع عثمان رضي الله عنه ، حتى بلغه صلى الله عليه و سلم أنه قد قتل عثمان ، فحمي لذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم دعا أصحابه إلى البيعة على القتال ، فبايعوه تحت شجرة هناك ، و كانت سمرة ، و كان عدة من بايعه هناك جملة من قدمنا أنه خرج معه إلى الحديبية إلا الجذ بن قيس فإنه كان قد استتر بعبير له نفاقاً منه و خذلنا ، و إلا أبا سريحة حذيفة بن أسيد ، فإنه شهد الحديبية ، و قيل : إنه لم يبايع ، و قيل : بل بايع .

إن أول من بايع يومئذ أبو سنان : و هب بن محصن ، أخو عكاشة بن محصن ، و قيل : ابنه سنان بن أبي سنان ، و بايع سلمة بن الأكوع رضي الله عنه يومئذ ثلاث مرات بأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم له بذلك ، كما رواه مسلم عنه ، و وضع صلى الله عليه و سلم إحدى يديه عن نفسه الكريمة ثم قال : و هذه عن عثمان رضي الله عنه فكان ذلك أجل من شهوده تلك البيعة . و أنزل الله عز و جل في ذلك : " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك " و قال صلى الله عليه و سلم : لا يدخل أحد من بايع تحت الشجرة النار "

فهذه هي بيعة الرضوان .

" و لما فرغ النبي صلى الله عليه و سلم من مقاضاة المشركين كما قدمنا شرع في التحلل من عمرته و أمر الناس بذلك ، فشق عليهم و توقفوا رجاء نسخه ، فغضب النبي صلى الله عليه و سلم من ذلك ، فدخل على أم سلمة فقال لها ذلك ، فقالت : اخرج أنت يا رسول الله فاذبح هديك و احلق رأسك ، و الناس يتبعونك يا رسول الله ، فخرج ففعل ذلك ، فبادر الناس إلى موافقته ، فحلقوا كلهم إلا عثمان بن عفان و أبا قتادة الحارث بن ربعي ، فإنهما قصرأ ، " ذكره السهيلي في الروض الأنف .

و كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً ، لأنهم يرون للمشركين قد ألزموهم بشروط كما أحبوا ، و أجابهم صلى الله عليه و سلم إليها و هذا من فرط شجاعتهم رضي الله عنهم و حرصهم على نصر الإسلام ، و لكن الله عز و جل أعلم بحقائق الأمور و مصالحها منهم ، و لهذا لما انصرف صلى الله عليه و سلم راجعاً إلى المدينة أنزل الله عز و جل عليه سورة الفتح بكمالها في ذلك ، و قال عبد الله بن مسعود : إنكم تعدون الفتح فتح مكة و إنما كما نعهده فتح الحديبية ، و صدق رضي الله عنه ، فإن الله سبحانه و تعالى جعل هذه هي السبب في فتح مكة كما سنذكره بعد أن شاء الله تعالى .

و عوض من هذه خير سلفاً و تعجيلاً .

بر

فصل — غزوة خيبر

ولما رجع صلى الله عليه و سلم إلى المدينة أقام بها إلى الحرم من السنة السابعة ، فخرج في آخره إلى خيبر ، و نقل عن مالك بن أنس رحمه الله : أن فتح خيبر كان في سنة ست ، و الجمهور على أنها في سنة سبع ، و أما ابن حزم فعنه أنها في سنة ست بلا شك ، و ذلك بناء على اصطلاحه ، و هو أنه يرى أن أول السنين الهجرية شهر ربيع الأول الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المدينة مهاجراً ، و لكن لم يتابع عليه ، إذا الجمهور على أن أول التاريخ من محرم تلك السنة ، و كان أول من أرخ بذلك يعلى بن أمية باليمن ، كما رواه الإمام أحمد بن حنبل عنه بإسناد صحيح إليه ، [وقيل : عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك في سنة ست عشرة كما بسط ذلك في موضع آخر] . فسار صلى الله عليه و سلم إليها ، و استخلف على المدينة ثميلة بن عبد الله الليثي فلما انتهى إليها حاصرها حصناً حصناً يفتحها الله عز و جل عليه و يغنمه ، حتى استكملها صلى الله عليه و سلم و خمسها ، و قسم نصفها بين المسلمين ، و كان جملتهم من حضر الحديبية فقط ، و أروى النصف الآخر لمصالحه ولما ينوبه من أمر المسلمين .

و استعمل اليهود الذين كانوا فيها بعد ما سألوا ذلك عوضاً عما كان صالحهم عليه من الجلاء على أن يعملوها و لرسول الله صلى الله عليه و سلم النصف مما يخرج منها من ثمر أو زرع ، و قد اصطفى صلى الله عليه و سلم من غنائمها صفية بنت حيي بن أخطب لنفسه ، فأسلمت ، فأعتقها ، و تزوجها ، و بنى بها في طريق المدينة بعدما حلت .

" و قد أهدت إليه امرأة من يهود خيبر — و هي زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم — شاة مصلية مسمومة ، فلما انتهش من ذراعها أخبره الذراع أنه مسموم ، فترك الأكل ، و دعا باليهودية فاستخبرها : [أسممت هذه الشاة] فقالت : نعم ، فقال : [ما أردت إلى ذلك] ؟ فقالت : أردت إن كنت نبياً لم يضرك ، وإن كنت غيره استرحنا منك ، فعفا عنها صلى الله عليه و سلم . و قيل : إن بشر بن البراء بن معرور كان ممن أكل منها ، فمات ، فقتلها به . و قد روى ذلك أبو داود مرسلاً عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف . "

و قدم على النبي صلى الله عليه و سلم في غزوة خيبر بعد فراغهم من القتال جعفر بن أبي طالب و أصحابه ممن بقي مهاجراً بأرض الحبشة ، و صحتهم أبو موسى الأشعري في جماعة من الأشعرين يزيدون على السبعين . و قدم عليه أبو هريرة و آخرون رضي الله عنهم أجمعين ، فأعطاهم صلى الله عليه و سلم من المغنم كما أراه الله عز و جل ، " و

قد قال صلى الله عليه وسلم لجعفر : [لا أدري بأيهما أنا أسر ، أفتتح خير أم بقدم جعفر] ؟ " و لما قدم عليه قام و قبل ما بين عينيه . و قد استشهد بخير من المسلمين نحو عشرين رجلاً رضي الله عنهم جميعهم .

فصل — فتح فديك

ولما بلغ أهل فديك ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل خير ، بعثوا إليه يطلبون الصلح فأجابهم ، فكانت مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل و لا ركاب ، فوضعها صلى الله عليه وسلم حيث أراه الله عز وجل ، ولم يقسمها .

فصل — فتح وادي القرى

و رجع إلى المدينة على وادي القرى فافتحه ، و قيل : إنه قاتل فيه . فالله أعلم . و في الصحيحين أن غلاماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى مدعماً ، بينما هو يحيط رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه سهم غرب فقتله ، فقال الناس : هنيئاً له الشهادة يا رسول الله ، " فقال : كلا و الذي نفسي بيده ، إن الشملة التي أخذها من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً " .

فصل — عمرة القضاء

ولما رجع صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أقام بها إلى شهر ذي القعدة فخرج فيه معتمراً عمرة القضاء التي قاضى قريشاً عليها . و منهم من يجعلها قضاء عن عمرة الحديبية حيث صد . و منهم من يقول عمرة القصاص . و الكل صحيح .

فسار حتى بلغ مكة فاعتمر وطاف بالبيت ، و تحلل من عمرته ، و تزوج بعد إحلاله بميمونة بنت الحارث أم المؤمنين . و تمت الثلاثة أيام ، فبعث إليه المشركون علياً رضي الله عنه يقولون له : اخرج من بلدنا . " فقال : (و ما عليهم لو بنيت بميمونة عندهم ؟) فأبو عليه ذلك " . و قد كانوا خرجوا من مكة حين قدمها صلى الله عليه وسلم و بغضاً له . فخرج عليه الصلاة والسلام فبنى بميمونة بسرف و رجع إلى المدينة مؤيداً منصوراً .

فصل — بعث مؤتة

و لما كان في جمادى الآخرة من سنة ثمان بعث صلى الله عليه وسلم الأمراء إلى مؤتة ، وهي قرية من أرض الشام ، ليأخذوا بثأر من قتل هناك من المسلمين . فأمر على الناس زيد بن حارثة مولاه صلى الله عليه وسلم " و قال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة " .

فخرجوا في نحو من ثلاثة آلاف ، و خرج صلى الله عليه وسلم معهم يودعهم إلى بعض الطريق ، فساروا حتى إذا كانوا ببعان بلغهم أن هرقل ملك الروم قد خرج إليهم في مائة ألف و معه مالك بن زافلة في مائة ألف أخرى من نصارى العرب من لحم و جذام و قبائل قضاة من براء و بلي ، و بلقين فاشتور المسلمون هناك و قالوا : نكتب

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأمره أو يمدنا . فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه : يا قوم ! و الله إن الذي خرجتم تطلبون : أمامكم — يعني الشهادة — و إنكم ما تقتلون الناس بعدد و لا قوة ، و ما تقتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فهي إحدى الحسينين : إما ظهور ، و إما شهادة . فوافقه القوم ، فهضوا . فلما كانوا يتخوم البلقاء لقوا جموع الروم فنزل المسلمون إلى جنب قرية مؤتة ، و الروم على قرية يقال لها مشارف ، ثم التقوا فقاتلوا قتالاً عظيماً .

و قتل أمير المسلمين زيد بن حارثة رضي الله عنه و الراية في يده ، فتناولها جعفر ، و نزل عن فرس له شقراء فقهرها ، و قاتل حتى قطعت يده اليمنى ، فأخذ الراية بيده الأخرى فقطعت أيضاً ، فاحتضن الراية ثم قتل رضي الله عنه ، عن ثلاث و ثلاثين سنة على الصحيح . فأخذ الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه ، و تلوم بعض التلوم ثم صمم و قاتل حتى قتل ، فيقال : إن ثابت بن أقرم أخذ الراية و أراد المسلمون أن يؤمروه عليهم فأبى ، فأخذ الراية خالد بن الوليد رضي الله عنه فانحاز بالمسلمين ، و تلتف حتى خلص المسلمون من العدو ، ففتح الله على يديه كما أخبر بذلك كله رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الذين بالمدينة يومئذ و هو قائم على المنبر ، فعلى إليهم الأمراء ، واحداً واحداً و عيناه تدرفان صلى الله عليه وسلم ، و الحديث في الصحيح . و جاء الليل فكف الكفار عن القتال .

و مع كثرة هذا العدو و قلة عدد المسلمين بالنسبة إليهم لم يقتل من المسلمين خلق كثير على ما ذكره أهل السير ، فإنهم لم يذكروا فيما سوا إلا نحو العشرة . و كر المسلمون راجعين ، و وقى الله شر الكفرة و له الحمد و المنة ، إلا أن هذه الغزوة كانت إرهاباً لما بعدها من غزو الروم ، و إرهاباً لأعداء الله و رسوله .

فصل — غزوة فتح مكة

نذكر فيه ملخص غزوة فتح مكة التي أكرم الله عز وجل بها رسوله ، و أقر عينه بها ، و جعلها علماً ظاهراً على إعلاء كلمته و إكمال دينه و الاعتناء بنصرته .
و ذلك لما دخلت خزاعة — كما قدمنا — عام الحديبية في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و دخلت بنو بكر في عقد قريش و ضربت المدة إلى عشر سنين ، أمن الناس بعضهم بعضاً ، و مضى من المدة سنة و من الثانية نحو تسعة أشهر ، فلم تكمل حتى غدا نوفل بن معاوية الديلي فيمن أطاعه من بني بكر بن عبد مناة فبيتوا خزاعة على ماء لهم يقال له الوتر ، فاقتتلوا هناك بذحول كانت لبني بكر على خزاعة من أيام الجاهلية ، و أعانت قريش بني بكر على خزاعة بالسلاح ، و ساعدتهم بعضهم بنفسه خفية ، و فرت خزاعة إلى الحرم فاتبعهم بنو بكر إليه ، فذكر قوم نوفل نوفلاً بالحرم ، و قالوا : اتق إهلك . فقال لا إله له اليوم ، و الله يا بني بكر إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تدركون فيه ثأركم ؟ قلت : قد أسلم نوفل هذا بعد ذلك ، و عفا الله عنه ، و حديثه مخرج في الصحيحين رضي الله عنه . و قتلوا من خزاعة رجلاً يقال له منبه ، و تحصنت خزاعة في دور مكة ، فدخلوا دار بديل بن ورقاء ، و دار مولى لهم يقال له : رافع ، فانتفض عهد قريش بذلك .

فخرج عمرو بن سالم الخزاعي و بديل بن ورقاء الخزاعي [و قوم من خزاعة] حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلموه بما كان من قريش و استصروه عليهم ، فأجابهم صلى الله عليه وسلم و بشرهم بالنصر ، و أنذرهم أن أبا سفيان سيقدم عليهم مؤكداً العقد و أنه سيرده بغير حاجة . فكان ذلك ، و ذلك أن قريشاً ندموا

على ما كان منهم ، فبعثوا أبا سفيان ليشد العقد الذي بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم و يزيد في الأجل ، فخرج ، فلما كان بعسفان لقي بديل بن ورقاء وهو راجع من المدينة ، فكتمه بديل ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و ذهب أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم و رضي الله عنها ، فذهب ليقعد على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعته ، و قالت : إنك رجل مشرك نجس . فقال : و الله يا بنية لقد أصابك بعدي شر . ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليه ما جاء له ، فلم يجبه صلى الله عليه وسلم بكلمة واحدة . ثم ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فطلب منه أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى عليه ، ثم جاء إلى عمر رضي الله عنه فأغلظ له ، و قال : أنا أفعل ذلك ؟ ! و الله لو لم أجد إلا الذر لقاتلتكم به . و جاء علياً رضي الله عنه فلم يفعل ، و طلب من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم و رضي الله عنها أن تأمر ولها الحسن أن يجير بين الناس ، فقالت : ما بلغ بني ذلك ، و ما يجيل أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يقوم هو فيجير بين الناس ، ففعل . و رجع إلى مكة فأعلمهم بما كان منه و منهم ، فقالوا : و الله ما زاد — يعنون علياً — أن لعب بك .

ثم شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاز إلى مكة ، و سأل الله عز وجل أن يعمي على قريش الأخبار ، فاستجاب له ربه تبارك و تعالى ، و لذلك لما كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يعلمهم فيه بما هم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من القدوم على قتالهم و بعث به مع امرأة ، و قد تأول في ذلك مصلحة تعود عليه رحمه الله ، و قبل ذلك منه رسول الله صلى الله عليه وسلم و صدقه ، لأنه كان من أهل بدر : و بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً و الزبير و المقداد رضي الله عنهم ، فردوا تلك المرأة من روضة خاخ ، و أخلوا منها الكتاب و كان هذا من إعلام الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك و من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم . و خرج صلى الله عليه وسلم لعشر خلون من رمضان في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين و الأنصار و قبائل العرب ، و قد ألفت مزينة و كذا بنو سليم على المشهور رضي الله عنهم جميعهم . و استخلف صلى الله عليه وسلم على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين . و لقيه عمه العباس بن عبد المطلب ، و قيل : بالجحفة فأسلم . و رجع معه صلى الله عليه وسلم ، و بعث ثقله إلى المدينة .

و لما انتهى صلى الله عليه وسلم إلى نيق العقاب جاءه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، و عبد الله بن أبي أمية أخو أم سلمة مسلمين ، فطردهما ، فشفعت فيهما أم سلمة ، و أبلغته عنهما ما رفته عليهما ، فقبلهما ، فأسلما أتم إسلام رضي الله عنهما ، بعد ما كانا أشد الناس عليه صلى الله عليه وسلم . و صام صلى الله عليه وسلم حتى بلغ ماء يقال له : الكديد ، بين عسفان و أمج من طريق مكة ، فأفطر بعد العصر على راحته ليراه الناس ، و أرخص للناس في الفطر ، ثم عزم عليهم في ذلك ، فأنهى صلى الله عليه وسلم حتى نزل بمر الظهران فبات به .

و أما قريش فعصى الله عليها الخبر ، إلا أنهم قد خافوا و توهّموا من ذلك ، فلما كانت تلك الليلة خرج ابن حرب ، و بديل بن ورقاء ، و حكيم بن حزام يتجسسون الخبر ، فلما رأوا النيران أنكروها ، فقال بديل : هي نار خزاعة ، فقال أبو سفيان : خزاعة أقل من ذلك .

و ركب العباس بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلشد ، و خرج من الجيش لعله يلقي أحداً ، فلما سمع

أصواتهم عرفهم ، فقال : أبا حنظلة ! فعرفه أبو سفيان ، فقال : أبو الفضل ؟ قال نعم . قال ما وراءك ؟ قال ويحك .. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ، واصباح قريش ! . . قال : فما الحيلة ؟ قال والله لئن ظفر بك ليقتلنك ، ولكن اركب ورائي وأسلم . فركب وراءه وانطلق به ، فمر في الجيش كلما أتى على قوم يقولون : هذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى مر بمنزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما رآه قال : عدو الله ؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ويركض العباس البغلة ، ويشند عمر رضي الله عنه في جريه ، وكان بطيئاً ، فسبقه العباس ، فأدخله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء عمر في أثره ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ضرب عنقه ، فأجاره العباس مبادرة ، فتناول هو وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يأتيه به غداً ، فلما أصبح أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض عليه الإسلام فتلكأ قليلاً ، ثم زجره العباس فأسلم ، فقال العباس : يا رسول الله ! إن أبا سفيان يحب الشرف ، فقال صلى الله عليه وسلم " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابها فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن " . قال ابن حزم : هذا نص في أنها فتحت صلحاً لا عنوة .

قلت : هذا أحد أقوال العلماء وهو الجديد من مذهب الشافعي . واستدل على ذلك أيضاً بأنها لم تخمس ولم تقسم . والذين ذهبوا إلى أنها فتحت عنوة استدلوا بأنهم قد قتلوا من قريش يومئذ عند الخندمة نحواً من عشرين رجلاً ، واستدلوا بهذا اللفظ أيضاً : [فهو آمن] والمسألة يطول تحريرها هنا . وقد تناظر الشيخان في هذه المسألة — أعني تاج الدين القزاري ، وأباز كريا النووي — ومسألة قسمة الغنائم . والغرض أنه صلى الله عليه وسلم أصبح يومه ذلك سائراً إلى مكة ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم العباس أن يوقف أبا سفيان عند خطم الجبل ، لينظر إلى جنود الإسلام إذا مرت عليه . وقد جعل صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه على المقدمة ، وخالد بن الوليد رضي الله عنه على الميمنة ، والزبير بن العوام رضي الله عنه على الميسرة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في القلب ، وكان أعطى الراية سعد بن عباد رضي الله عنه ، فبلغه أنه قال لأبي سفيان حين مر عليه : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة — والحرمة هي الكعبة — فلما شكأ أبو سفيان ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بل هذا يوم تعظم فيه الكعبة " . فأمر بأخذ الراية من سعد فتعطى علياً ، وقيل : الزبير ، وهو الصحيح . وأمر صلى الله عليه وسلم الزبير أن يدخل من كداء من أعلى مكة ، وأن تنصب رايته بالحجون ، وأمر خالداً أن يدخل من كدى من أسفل مكة ، وأمرهم بقتال من قاتلهم . وكان عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، قد جمعوا جمعاً بالخندمة ، فمر بهم خالد بن الوليد فقاتلهم ، فقتل من المسلمين ثلاثة وهم : كرز بن جابر من بني محارب بن فهر ، وحبيش بن خالد بن ربيعة بن أصرم الخزاعي ، وسلمة بن الميلاء الجهني ، رضي الله عنهم . وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلاً ، وفر بقيتهم .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وهو راكب على ناقته وعلى رأسه المغفر ، ورأسه يكاد يمس مقدمة الرجل من تواضعه لربه عز وجل . وقد آمن صلى الله عليه وسلم الناس إلا عبد العزى بن خطل ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، ومقيس بن صبابه ، والحويرث بن نقيذ ، وقيتنين لابن خطل ، وهما فرتنا وصاحبتهما ، وسارة مولاة لبني عبد المطلب ، فإنه صلى الله عليه وسلم أهدر دمائهم ، وأمر بقتلهم حيث و

جلوا ، حتى و لو كانوا متعلقين بأستار الكعبة فقتل ابن خطل ، و هو متعلق بالأستار ، و مقيس ابن صباة ، و الحويرث بن نقيذ ، و إحدى القينتين ، و آمن الباقون .
و نزل صلى الله عليه و سلم مكة و اغتسل في بيت أم هانئ و صلى ثماني ركعات يسلم من كل ركعتين ، فقليل إنها صلاة الضحى . و قيل : صلاة الفجر . قال السهيلي : و قد صلاها سعد بن أبي وقاص في إيوان كسرى ، إلا أنه صلى ثماني ركعات بتسليم واحد . و ليس كما قال ، بل يسلم من كل ركعتين كما رواه أبو داود . و خرج صلى الله عليه و سلم إلى البيت فطاف به طواف قدوم ، ولم يسع ، و لم يكن معتمراً .
و دعا بالفتح ، فدخل البيت و أمر بإلقاء الصور و محوها منه ، و أذن بلال يومئذ على ظهر الكعبة ، ثم رد صلى الله عليه و سلم المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة . و أقرهم على السدانة .
و كان الفتح لعشر بقين من رمضان .

" و استمر صلى الله عليه و سلم مفطراً بقية الشهر يصلي ركعتين ، و يأمر أهل مكة أن يتموا " ، كما رواه النسائي بإسناد حسن عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، و خطب صلى الله عليه و سلم الغد من يوم الفتح فيين حرمة مكة و أنها لم تحل لأحد قبله و لا تحل لأحد بعده ، و قد أحلت له ساعة من نهار ، و هي غير ساعته تلك حرام .

و بعث صلى الله عليه و سلم السرايا إلى من حول مكة من أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام ، و كان في جملة تلك البعوث بعث خالد إلى بني جذيمة الذين قتلهم خالد حين دعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : صبا ، و لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فوداهم رسول الله صلى الله عليه و سلم و تبرأ من صنيع خالد بهم .
و كان أيضاً في تلك البعوث بعث خالد أيضاً إلى العزى ، و كان بيتاً تعظمه قريش و كنانة و جميع مضر ، فدمرها رضي الله عنه من إمام و شجاع . و كان عكرمة بن أبي جهل قد هرب إلى اليمن ، فلحقته امرأته وهي مسلمة و هي أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، فردته بأمان رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فأسلم و حسن إسلامه ، و كذا صفوان بن أمية كان قد فر إلى اليمن ، فتبعه صاحبه في الجاهلية عمير بن وهب بأمان رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فردده ، و سيره صلى الله عليه و سلم أربعة أشهر ، فلم تمض حتى أسلم و حسن إسلامه رضي الله عنه .

فصل — غزوة حنين

و لما بلغ فتح مكة هوزان جمعهم مالك بن عوف النصري ، فاجتمع إليه ثقيف و قومه بنو نصر بن معاوية ، و بنو جشم ، و بنو سعد بن بكر ، و بشر من بني هلال بن عامر ، و قد استصحبوا معهم أنعامهم و نساءهم لئلا يفروا ، فلما تحقق ذلك دريد بن الصمة شيخ بني جشم — و كانوا قد حملوه في هودج لكبره تيمناً برأيه — أنكر ذلك على مالك بن عوف النصري و هجنه ، و قال : إنها إن كانت لك لم ينفعك ذلك ، و إن كانت عليك فإن المنهزم لا يرد شيء . و حرضهم على ألا يقاتلوا إلا في بلادهم ، فأبوا عليه ذلك و اتبعوا رأي مالك بن عوف ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده و لم يغيب عني .

و بعث صلى الله عليه و سلم عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي فاستعلم له خبر القوم و قصدهم ، فتهيأ رسول الله صلى الله عليه و سلم للقائهم ، و استعار من صفوان بن أمية أدرعاً ، قيل : مائة . و قيل : أربع مائة . و اقترض منه جملة من المال ، و سار إليهم في العشرة آلاف الذين كانوا معه في الفتح ، و ألفين من طلقاء مكة ، و شهد معه صفوان بن أمية حينئذ و هو مشرك ، و ذلك في شوال من هذه السنة ، و استخلف على مكة عتاب بن أسيد بن

أبي العيص أمية بن عبد شمس ، و له نحو عشرين سنة .

و مر صلى الله عليه و سلم في مسيره ذلك على شجرة يعظمها المشركون يقال لها ذات أنواط ، فقال بعض جهال العرب : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : " قلت — و الذي نفسي بيده — كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، لتركبن سنن من كان قبلكم " .

ثم نهض صلى الله عليه و سلم فوافى حنيناً ، و هو واد حدور من أودية قحمة . و قد كمنت لهم هوازن فيه ، و ذلك في عمية الصبح ، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد ، فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد ، فذلك قوله تعالى : " و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً و ضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين " و ذلك أن بعضهم قال : لن نغلب اليوم من قلة . و ثبت رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و لم يفر ، و معه من الصحابة : أبو بكر ، و عمر ، و علي ، و عمه العباس ، و ابنه : الفضل ، و قثم ، و أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، و ابنه جعفر ، و آخرون . و هو صلى الله عليه و سلم يومئذ راكب بغلته التي أهداها له فروة بن نوفاسة الجذامي ، و هو يركضها إلى وجه العدو ، و العباس أخذ بحكمته يكفها عن التقدم ، و هو صلى الله عليه و سلم ينهه باسمه يقول : (أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب) .

ثم أمر العباس ، و كان جهر الصوت ، أن ينادي : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب الشجرة ، يا معشر أصحاب السمرة ، فلما سمعه المسلمون و هم فارون كروا و أجابوه : لبيك لبيك ، و جعل الرجل إذا لم يستطع أن يثني بغيره لكثرة المنهزمين ، نزل عن بغيره و أخذ درعه فلبسها ، و أخذ سيفه و ترسه ، و يرجع راجلاً إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ، حتى إذا اجتمع حوله عصابة منهم نحو المائة ، استقبلوا هوازن فاجتلدواهم و إياهم ، و اشتدت الحرب ، و ألقى الله في قلوب هوازن الرعب حين رجعوا ، فلم يملكوا أنفسهم ، و رماهم صلى الله عليه و سلم بقبضة حصى بيده ، فلم يبق منهم أحد إلا ناله منها ، و فسر قوله تعالى : " وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " بذلك . و عندي في ذلك نظر ، لأن الآية نزلت في قصة بدر كما تقدم .

و تفر هوازن بين يدي المسلمين ، و يتبعونهم يقتلون و يأسرون ، فلم يرجع آخر الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا و الأسارى بين يده ، و حاز صلى الله عليه و سلم أموالهم و عيالهم . و انحازت طوائف من هوازن إلى أوطاس ، فبعث صلى الله عليه و سلم إليهم أبا عامر الأشعري و اسمه عبيد و معه ابن أخيه أبو موسى الأشعري حاملاً راية المسلمين في جماعة من المسلمين ، فقتلوا منهم خلقاً . و قتل أمير المسلمين أبو عامر ، رماه رجل فأصاب ركبته ، و كان منها حنقه ، فقتل أبو موسى قاتله ، و قيل : بل أسلم قاتله بعد ذلك ، و كان أحد إخوة عشرة قتل أبو عامر التسعة قبله ، فالله أعلم . و لما أخبر أبو موسى رسول الله صلى الله عليه و سلم بذلك استغفر صلى الله عليه و سلم لأبي عامر .

و كان أبو عامر رابع أربعة استشهدوا يوم حنين ، و الثاني أيمن بن أم أيمن ، و الثالث يزيد بن زمعة بن الأسود ، و الرابع سراقبة بن الحارث بن عدي من بني العجلان من الأنصار رضي الله عنهم .

و أما المشركون فقتل منهم خلق كثير (نحو الأربعين)

و في هذه الغزوة قال صلى الله عليه و سلم : " من قتل قتيلاً فله سلبه " في قصة أبي قتادة رضي الله عنه .

فصل — غزوة الطائف —

و أما ملك هوازن وهو مالك بن عوف النصري فإنه حين انهزم جيشه دخل مع ثقيف حصن الطائف . و رجع صلى الله عليه و سلم من حنين فلم يدخل مكة حتى أتى الطائف فحاصروهم ، فقبل : بضع وعشرون ليلة ، و قيل : بضعة عشرة ليلة . قال ابن حزم و هو الصحيح بلا شك . قلت : ما أدري من أين صحح هذا ؟ بل كأنه أخذه من قوله صلى الله عليه و سلم لهوازن حين أتوه مسلمين بعد ذلك : " لقد كنت استأنيت بكم عشرين ليلة " و في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : فحاصروناهم أربعين يوماً — يعني ثقيفاً — فاستعصوا و تمنعوا ، و قتلوا جماعة من المسلمين بالنبل و غيره .

و قد خرب صلى الله عليه و سلم كثيراً من أمواهم الظاهرة و قطع أعينهم ، و لم ينل منهم كبيرهم شيء ، فرجع عنهم فأتى الجعرانة ، فأثاه وفد هوازن هنالك مسلمين ، و ذلك قبل أن يقسم الغنائم ، فخيرهم صلى الله عليه و سلم بين ذراريهم و بين أمواهم ، فاختاروا الذرية ، فقال صلى الله عليه و سلم : " أما ما كان لي و لبني عبد المطلب فهو لكم " ، قال المهاجرون و الأنصار : و ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه و سلم . و امتنع الأقرع بن حابس و عيينة بن حصن و قومهما حتى أرضاهما و عوضهما صلى الله عليه و سلم . و أراد العباس بن مرداس السلمي أن يفعل كفعلهما ، فلم توافقه بنو سليم ، بل طيخوا ما كان لهم لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، فردت الذرية على هوازن ، و كانوا ستة آلاف ، فيهم الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى من بني سعد بن بكر بن هوازن ، و هي أخت رسول الله صلى الله عليه و سلم من الرضاعة ، فأكرمها و أعطاهما ، و رجعت إلى بلادها مختارة لذلك ، و قيل : كانت هوازن متوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم برضاعتهن إياه .

ثم قسم صلى الله عليه و سلم بقيته على المسلمين ، و تألف جماعة من سادات قريش و غيرهم ، فجعل يعطي الرجل المائة بعير ، و الخمسين ، و نحو ذلك . و في صحيح مسلم عن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أعطى يومئذ صفوان بن أمية ثلاثمائة من الإبل .

و عتب بعض الأنصار ، فبلغه ، فخطبهم وحدهم ، و امتن عليهم بما أكرمهم الله من الإيمان به ، و بما أغناهم الله به بعد فقرهم ، و ألف بينهم بعد العداوة التامة ، فرضوا و طابت أنفسهم رضي الله عنهم و أرضاهم . و طعن ذو الخويصرة التميمي ، و اسمه حرقوص — فيما قيل — على النبي صلى الله عليه و سلم في قسمته تلك ، و صفح عنه صلى الله عليه و سلم و حلم ، بعد ما قال له بعض الأمراء : ألا نضرب عنقه ؟ فقال : لا . ثم قال : " إنه سيخرج من ضئضئ هذا قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم " .

و استعمل صلى الله عليه و سلم مالك بن عوف النصري على من أسلم من قومه ، و كان قد أسلم و حسن إسلامه ، و امتدح رسول الله صلى الله عليه و سلم في قصيدة ذكرها ابن إسحاق . و اعتمر صلى الله عليه و سلم من الجعرانة و دخل مكة ، فلما قضى عمرته ارتحل إلى المدينة ، و أقام للناس الحج عامئذ عتاب بن أسيد رضي الله عنه ، فكان أول من حج بالناس من أمراء المسلمين .

فصل — غزوة تبوك

و لما أنزل الله عز و جل على رسول " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " ندب رسول الله صلى الله

عليه و سلم أهل المدينة و من حولهم من الأعراب إلى الجهاد ، و أعلمهم بغزو الروم ، و ذلك في رجب من سنة تسع ، و كان لا يريد غزوة إلا ورى بغيرها ، إلا غزوته هذه ، فإنه صرح لهم بما ليتأهبوا ، لشدة عدوهم و كثرتة ، و ذلك حين طابت الثمار ، و كان ذلك في سنة مجدية ، فتأهب المسلمون لذلك . و أنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه على هذا الجيش و هو جيش العسرة مالا جزيلاً فقليل : ألف دينار . و قال بعضهم : إنه حمل على ألف بعير و مائة فرس و جهزها أتم جهاز حتى لم يفقدوا عقلاً و خطاماً ، رضي الله عنه . و نهض صلى الله عليه و سلم في نحو من ثلاثين ألفاً ، و استخلف على المدينة محمد بن مسلمة و قيل : سباع بن عرفة : و قيل : علي بن أبي طالب رضي الله عنه . و الصحيح أن علياً كان خليفة له على النساء و الذرية ، و لهذا لما آذاه المنافقون فقالوا : تركه على النساء و الذرية ، الحق رسول الله صلى الله عليه و سلم فشكا إليه ذلك ، فقال : " ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ غير أنه لا نبي بعدي " و قد خرج معه عبد الله بن أبي راس النفاق ، ثم رجع من أثناء الطريق . و تخلف عن رسول الله صلى الله عليه و سلم النساء و الذرية ، و من عذره الله من الرجال ممن لا يجد ظهراً يركبه أو نفقة تكفيه ، فمنهم البكاؤون ، و كانوا سبعة : سالم بن عمير ، و علبة بن زيد ، و أبو ليلي عبد الرحمن بن كعب ، و عمر بن الحمام ، و عبد الله بن المغفل المزني ، و هرمي بن عبد الله و عرابض بن سارية الفزازي ، رضي الله عنهم .

و تخلف منافقون كفراً و عناداً و كانوا نحو الثمانين رجلاً .

و تخلف عصاة مثل : مرارة بن الربيع ، و كعب بن مالك ، و هلال بن أمية . ثم تاب الله عليهم بعد قدومه صلى الله عليه و سلم بخمسين ليلة . فسار صلى الله عليه و سلم فمر في طريقه بالحجر ، فأمرهم أن لا يدخلوا عليهم بيوهم إلا أن يكونوا باكين ، و أن لا يشربوا إلا من يثر الناقة ، و ما كانوا عجنوا به من غيره فليطعموه للإبل . و جازها صلى الله عليه و سلم مقنعاً . فبلغ صلى الله عليه و سلم تبوك و فيها عين تبض بشيء من ماء قليل ، فكثرت بركته ، مع ما شوهده من بركة دعائه في هذه الغزوة ، من تكثير الطعام الذي كان حاصل الجيش جميعه منه مقدار العنز الباردة ، فدعا الله عز و جل فأكلوا منه و ملؤوا كل وعاء كان في ذلك الجيش ، و كذا لما عطشوا دعا الله تعالى فجاءت سحابة فأمطرت ، فشربوا حتى رووا و احتملوا ، ثم و جدوها لم تجاوز الجيش . و من آيات آخر كثيرة احتاجوا إليها في ذلك الوقت .

و لما انتهى إلى هناك لم يلق غزواً ، و رأى أن دخولهم إلى أرض الشام بهذه السنة يشق عليهم ، فعزم على الرجوع . و صالح صلى الله عليه و سلم يحنة بن رؤبة صاحب أيلة ، و بعث خالداً إلى أكيدر دومة ، فجاء به فصالحه أيضاً ، و رده ، ثم رجع صلى الله عليه و سلم و بعد رجوعه أمر بهدم مسجد الضرار ، و كان قد أخرج من دار خزيم بن خالد ، و هدمه بأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم مالك بن الدخشم أخو بني سالم ، أحد رجال بدر ، و آخر معه اختلف فيه ، و هو المسجد الذي نهي الله رسوله أن يقوم فيه أبداً . و كان رجوعه من هذه الغزاة في رمضان من سنة تسع ، و أنزل فيها عامة سورة التوبة ، و عاتب الله عز و جل من تخلف عنه صلى الله عليه و سلم ، فقال عز و جل : " ما كان لأهل المدينة و من حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه " الآية و التي تليها ، ثم قال : " و ما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون " ، فبان لك من هذا و اتضح ما اختلف فيه ، و هو أن

طائفة النافرة هم الذين يتفقهون في الدين بصحتهم رسول الله صلى الله عليه و سلم في هذه الغزوة ، و إذا رجعوا أنذروا قومهم ليحذروا مما تجدد بعلمهم من الدين ، و الله سبحانه و تعالى أعلم .

فصل — قدوم وفد ثقيف

و قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه و سلم في رمضان هذه السنة فأسلموا ، و كان سبب ذلك أن عروة بن مسعود سيدهم كان قد جاء رسول الله صلى الله عليه و سلم منصرفه من حنين و الطائف و قبل و صوله إلى المدينة ، فأسلم و حسن إسلامه و استأذن رسول الله صلى الله عليه و سلم في الرجوع إلى قومه ليدعوهم إلى الله عز و جل ، فأذن له وهو يخشى عليه ، فلما رجع إليهم و دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل فقتلوه . ثم إنهم ندموا و رأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فبعثوا وفدهم إليه في رمضان كما قدمنا ، و كانوا ستة ، فأول من بصر بهم المغيرة بن شعبه الثقفي ، و كان يرعى ، فترك ذلك و أقبل بهم على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و علمهم في الطريق كيف يسلمون عليه ، و سبق أبو بكر الصديق رضي الله عنه المغيرة و بشر رسول الله صلى الله عليه و سلم بقدومهم . فأنزلهم عليه الصلاة و السلام في المسجد و ضرب لهم فيه قبة ، و كان السفير بينهم و بينه خالد بن سعيد بن العاص . و كان الطعام يأتيهم من عند النبي صلى الله عليه و سلم فلا يأكلونه حتى يأكل خالد قبلهم ، فأسلموا و اشترطوا أن تبقى عندهم طاغيتهم اللات ، و أن لا تقدم ، فلم يجيبهم صلى الله عليه و سلم إلى ذلك . و سألوا أن يخفف عنهم بعض الصلوات فلم يجبههم إلى ذلك . فسألوا أن لا يهدموا بأيديهم طاغيتهم ، فأجابهم إليه . و بعث معهم أبا سفيان صخر بن حرب و المغيرة بن شعبه لهدمها فهلمها . و عظم ذلك على نساء ثقيف ، و اعتقلوا أن يصيبهم منها سوء ، و قد طنز بهم المغيرة بن شعبه حين هدمها فخر صريعاً ، و ذلك بتواطؤ منه و من أبي سفيان ، ليؤهمهم أن ذلك منها ، ثم قام يبيتهم و يقرعهم رضي الله عنه . فأسلموا و حسن إسلامهم . و جعل صلى الله عليه و سلم إمامهم أحد الستة الذين قدموا عليه و هو عثمان بن أبي العاص ، و كان أحدثهم سناً ، لما رأى من حرصه على قراءة القرآن و تعلمه الفرائض وأمره أن يتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً ، و أن يقتدي بأضعفهم .

فصل — حجة الصديق و تواتر الوفود و بعث الرسل

و بعث صلى الله عليه و سلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج هذه السنة ، و أرفده علياً رضي الله عنه بسورة براءة : أن لا يحج بعد العام مشرك ، و لا يطوف بالبيت عريان ، و ينبذ إليهم عهودهم إلا من كان ذا عهد مقدر فعهدته إلى مدته .

و تواترت الوفود هذه السنة و ما بعدها على رسول الله صلى الله عليه و سلم مذعنة بالإسلام و داخلين في دين الله أفواجاً كما قال تعالى : " إذا جاء نصر الله و الفتوح * رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك و استغفره إنه كان توابا " .

و بعث صلى الله عليه و سلم معاذ بن جبل إلى اليمن و معه أبو موسى الأشعري رضي الله عنهما ، و بعث الرسل إلى ملوك الأقطار يدعوهم إلى الإسلام . و انتشرت الدعوة ، و علت الكلمة ، و جاء الحق ، و زهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً .

فصل — حجة الوداع

نذكر فيه ملخص حجة الوداع و كيفيتها بعون الله و منه و حسن توفيقه و هدايته ، فنقول و بالله التوفيق :
صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم الظهر يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة من سنة عشر بالمدينة ، ثم
خرج منها بمن معه من المسلمين من أهل المدينة و من تجمع من الأعراب ، فصلى العصر بذي الحليفة ركعتين ، و
بات بها .

وأتاه آت من ربه عز وجل في ذلك الموضع — وهو وادي العقيق — يأمره عن ربه عز وجل أن يقول في حجته هذه
: حجة في عمرة . و معنى هذا أن الله أمره أن يقرن الحج مع العمرة ، فأصبح صلى الله عليه و سلم فأخبر الناس
بذلك ، فطاف على نسائه يومئذ بغسل واحد ، و هن تسع ، و قيل : إحدى عشرة . ثم اغتسل و صلى في المسجد
ركعتين ، و أهل بحجة و عمرة معاً . هذا الذي رواه بلفظه و معناه عنه صلى الله عليه و سلم ستة عشر صحابياً ،
منهم خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه ، و قد رواه عنه صلى الله عليه و سلم ستة عشر تابعياً ، و هو صريح لا
يحتمل التأويل ، إلا أن يكون بعيداً ، و ما عدا ذلك مما جاء من الأحاديث الموهمة التمتع أو ما يدل على الأفراد ،
فلها محل غير هذا تذكر فيه . و القرآن في الحج عند أبي حنيفة هو الأفضل ، و روي فيه عن الإمام أحمد بن حنبل
قول ، و عن الإمام أبي عبد الله الشافعي ، و قد نصره جماعة من محققي أصحابه ، و هو الذي يحصل به الجمع بين
الأحاديث كلها . و من العلماء من أوجبه ، و الله أعلم .

و ساق صلى الله عليه و سلم الهدي من ذي الحليفة ، و أمر من كان معه هدي أن يهل كما أهل صلى الله عليه و
سلم .
و سار صلى الله عليه و سلم و الناس بين يديه و خلفه ، و عن يمينه و شماله أماً لا يحصون كثرة ، كلهم قدم ليأتم به
صلى الله عليه و سلم .

فلما قدم صلى الله عليه و سلم مكة طاف للقدوم ، ثم سعى بين الصفا و المروة ، و أمر الذين لم يسوقوا هدياً أن
يفسخوا حجهم إلى عمرة و يتحللوا حلاً تاماً ، ثم يهلوا بالحج و قت خروجهم إلى منى ، ثم قال : " لو استقبلت
من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي و جعلتها عمرة " فذلك هذا أنه لم يكن متمتعاً قطعاً ، خلافاً لزعامي ذلك
من أصحاب الإمام أحمد و غيرهم و قدم علي رضي الله عنه من اليمن فقال صلى الله عليه و سلم : " بم أهلت ؟
قال : يهلال كيهلال النبي صلى الله عليه و سلم . فقال له النبي صلى الله عليه و سلم : إني سقت الهدي و قرنت
" . روى هذا اللفظ أبو داود و غيره من الأئمة بإسناد صحيح ، فهذا صريح في القرآن ، و قدم علي رضي الله عنه
من اليمن هدياً ، و أشركه صلى الله عليه و سلم في هديه أيضاً ، و كان حاصلها مائة بدنة .

ثم خرج صلى الله عليه و سلم إلى منى فبات بها و كانت ليلة الجمعة التاسع من ذي الحجة . ثم أصبح فصار إلى
عرفة و خطب تحت سمررة خطبة عظيمة ، شهدها من أصحابه نحو من أربعين ألفاً رضي الله عنهم أجمعين ، و جمع بين
الظهر و العصر ثم وقف بعرفة . ثم بات بالمزدلفة ، و جمع بين المغرب و العشاء ليلتذ ، ثم أصبح فصلى الفجر في
أول وقتها .

ثم سار قبل طلوع الشمس إلى منى ، فرمى جرة العقبة ، و نحر ، و حلق .
ثم أفاض فطاف بالبيت طواف الفرض و هو طواف الزيارة ، و اختلف أين صلى الظهر يومئذ ، و قد أشكل ذلك

على كثير من الحفاظ .

ثم حل من كل شيء حرم منه صلى الله عليه وسلم .

و خطب ثاني يوم النحر خطبة عظيمة أيضاً ، و وصى و حذر و أئذروا أشهدهم على أنفسهم أنه بلغ الرسالة .
فنحن نشهد أنه بلغ الرسالة ، و أدى الأمانة ، و نصح الأمة صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين .

ثم أقبل صلى الله عليه وسلم منصرفاً إلى المدينة ، و قد أكمل الله له دينه .

فصل — وفاته صلى الله عليه وسلم

فأقام بها بقية ذي الحجة والحرم و صفر ، ثم ابتدأ به صلى الله عليه وسلم و جمعه في بيت ميمونة يوم خميس ، و كان و جمعاً في رأسه الكريم ، و كان أكثر ما يعتريه الصداغ عليه الصلاة والسلام ، فجعل مع هذا يلور على نسائه حتى شق عليه ، فاستأذنه أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها ، فأذن له ، فمكث و جمعاً اثني عشر يوماً .
و قيل : أربعة عشر يوماً . و الصديق رضي الله عنه يصلي بالناس بنصه صلى الله عليه وسلم عليه ، و استثنائه له من جيش أسامة الذي كان قد جهزه صلى الله عليه وسلم إلى الشام لغزو الروم .

فلما حصل الوجع ، تربصوا لينظروا ما يكون من أمره صلى الله عليه وسلم و قد صلى عليه الصلاة والسلام خلف الصديق جالساً .

و قبض صلى الله عليه وسلم ضحى يوم الإثنين من ربيع الأول ، فالمشهور أنه الثاني عشر منه ، و قيل مستهله .
وقيل : ثانية ، و قيل : غير ذلك .

و قال السهيلي ما زعم أنه لم يسبق إليه : من أنه لا يمكن أن تكون وقفته يوم الجمعة تاسع ذي الحجة ، ثم تكون وفاته يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول بعده ، سواء حسبت الشهور كاملة أم ناقصة ، أم بعضها كاملاً و بعضها ناقصاً .

و قد حصل له جواب صحيح في غاية الصحة و لله الحمد ، أفردته مع غيره من الأجوبة ، و هو أن هذا إنما وقع بحسب اختلاف رؤية هلال ذي الحجة في مكة و المدينة ، فرآه أهل مكة قبل أولئك بيوم ، و على هذا يتم القول المشهور والله الحمد والمنة .

وكان عمره يوم مات صلى الله عليه وسلم ثلاثاً و ستين سنة ، على الصحيح ، قالوا : و لها مات أبو بكر وعمر وعلي و عائشة رضي الله عنهم ، ذكره أبو زكريا النووي في تهذيبه و صححه ، و في بعضه نظر . و قيل : كان ستين ، وقيل : خمساً و ستين و هذه الأقوال الثلاثة في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما . فاشتدت الرزية بموته صلى الله عليه وسلم ، و عظم الخطب و جل الأمر ، و أصيب المسلمون بنبيهم ، و أنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك ، و قال : إنه لم يميت ، و إنه سيعود كما عاد موسى لقومه . و ما ج الناس ، و جاء الصديق المؤيد المنصور رضي الله عنه أولاً و آخراً و ظاهراً و باطناً ، فأقام الأود ، و صدع بالحق ، و خطب الناس و تلا عليهم : " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين " ، فكأن الناس لم يسمعوها قبل ذلك ، فما من أحد إلا يتلوها . ثم ذهب المسلمون به إلى سقيفه بني ساعدة و قد اجتمعوا على إمرة سعد بن عباد ، فصلهم عن ذلك و

ردهم ، و أشار عليهم بعمر بن الخطاب أو بأبي عبيدة بن الجراح ، فأبيا ذلك و المسلمون ، و أبي الله ذلك أيضاً ، فبايعه المسلمون رضي الله عنهم هناك ، ثم جاء فبايعه الناس البيعة العامة على المنبر . ثم شرعوا في جهاز رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فغسلوه في قميصه ، و كان الذي تولى ذلك عمه العباس ، و ابنه قثم ، و علي بن أبي طالب ، و أسامة بن زيد ، و شقران — مولياه — يصبان الماء ، و ساعد في ذلك أوس بن خولي الأنصاري البصري ، رضي الله عنهم أجمعين .
و كفنوه في ثلاثة أثواب قطن سحرية يعض ليس فيها قميص .

و صلوا عليه أفراداً واحداً واحداً ، لحديث جاء في ذلك رواه البزار — و الله أعلم بصحته — أنه صلى الله عليه و سلم أمرهم بذلك . و قال الشافعي : إنما صلوا عليه مرة بعد مرة أفذاذاً لعظم قدره ، و لمنافستهم أن يؤمهم عليه أحد . قال الحاكم أبو أحمد فكان أولهم عليه صلاة العباس عمه ، ثم بنو هاشم ، ثم المهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم سائر الناس ، فلما فرغ الرجال صلى الصبيان ثم النساء .
و دفن صلى الله عليه و سلم يوم الثلاثاء ، و قيل : ليلة الأربعاء سحراً ، في الموضع الذي توفي فيه من حجرة عائشة ، لحديث رواه الترمذي عن أبي بكر رضي الله عنه ، و هذا هو المتواتر تواتراً ضرورياً معلوماً من الدفن الذي هو اليوم داخل مسجد المدينة .
آخر الجزء الأول من الترجمة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و السلام . و يتلوه الذي يليه .

فصل — حجه و اعتماؤه صلى الله عليه و سلم

لم يحج صلى الله عليه و سلم بعدما هاجر إلا حجته هذه ، و هي حجة الإسلام و حجة الوداع ، و كان فرض الحج في السنة السادسة في قول بعض العلماء ، و في التاسعة في قول آخرين منهم ، و قيل : سنة عشر ، و هو غريب و أغرب منه ما حكاه إمام الحرمين في النهاية و جهاً لبعض الأصحاب : أن فرض الحج كان قبل الهجرة و أما عمره فكان أربعاً : الحديبية التي صد عنها ، و عمرة القضاء بعدها ، ثم عمرة الجعرانة ، ثم عمرته التي مع حجته . و قد حج صلى الله عليه و سلم قبل الهجرة مرة ، و قيل : أكثر . و هو الأظهر ، لأنه كان صلى الله عليه و سلم يخرج ليالي الموسم يدعو الناس إلى الله تعالى ، صلى الله عليه و سلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين .

فصل — عدد غزواته و بعثته

أما غزواته ، فروى مسلم من حديث عبد الله بن بريدة بن الحصيص الأسلمي عن أبيه قال : غزا رسول الله صلى الله عليه و سلم تسع عشرة غزوة ، قاتل في ثمان منهن ، و عن زيد بن أرقم قال : غزا رسول الله صلى الله عليه و سلم تسع عشرة غزوة كنت معه في سبع عشرة . و أما محمد بن إسحاق فقال : كانت غزواته التي خرج فيها بنفسه سبعاً وعشرين ، و كانت بعثته و سراياه ثمانياً و ثلاثين ، و زاد ابن هشام في البعث على ابن إسحاق ، و الله أعلم .

فصل — أعلام نبوته

في أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم على سبيل الإجمال ، لأن تفصيله يحتاج إلى مجلدات عديدة ، وقد جمع الأئمة في ذلك ما زاد على ألف معجزة .

فمن أبحرهما وأعظمها القرآن العزيز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، و إعجازه من جهة لفظه ومعناه :

أما لفظه ففي أعلى غايات فصاحة الكلام و كل من ازدادت معرفته بهذا الشأن ازداد للقرآن تعظيماً في هذا الباب ، و قد تحدى القاصحاء والبلغاء في زمانه مع شدة عدوانهم له ، و حرصهم على تكذيبه ، بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة ، فعجزوا . و أخبرهم أنهم لا يطيقون ذلك أبداً ، بل قد تحدى الجن والإنس قاطبة على أن يأتوا بمثله فعجزوا ، و أخبرهم بذلك ، فقال الله تعالى : " قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " إلى غير ذلك من الوجوه المثبتة لإعجازه . و أما معناه فإنه في غاية العاضد والحكمة ، و الرحمة والمصلحة ، و العاقبة الحميدة والاتفاق ، و تحصيل أعلى المقاصد ، و تبطيل المفاسد ، إلى غير ذلك مما يظهر لمن له لب و عقل صحيح خال من الشبه والأهواء ، نعوذ بالله منها و نسأله الهدى .

و من ذلك أنه نشأ بين قوم يعرفون نسبه و مرباه و مدخله و مخرجه ، يتيماً بين أظهرهم ، أميناً صادقاً ، باراً راشداً ، كلمهم يعرف ذلك و لا ينكره إلا من عاند و سفسط و كابر . و كان أميناً لا يحسن الكتابة و لا يعاينها و لا أهلها ، و ليس في بلادهم من علم الأولين ، و لا من يعرف شيئاً من ذلك فجاءهم على رأس أربعين سنة من عمره يخبر بما مضى مفصلاً مبيناً ، يشهد له علماء الكتب المقدمة البصرون بما المهتدون بالصدق ، بل أكثر الكتب المنزلة قبله قد دخلها التحريف والتبديل ، و يجيء ما أنزل الله عليه مبيناً عليه ، دالاً على الحق منه ، و هو مع ذلك في غاية الصدق و الأمانة ، و السمت الذي لم ير أولو الأبواب مثله صلى الله عليه وسلم ، والعبادة لله ، و الخشوع له ، و الذلة له ، و الدعاء إليه ، و الصبر على أذى من خالفه و احتماله ، و زهده في الدنيا ، وأخلاقه السنية الشريفة : من الكرم و الشجاعة و الحياء و البر ، و الصلة صلى الله عليه وسلم ، إلى غير ذلك من الأخلاق التي لم تجتمع في بشر قبله و لا بعده ، إلا فيه ، فبالعقل يدرك أن هذا يستحيل أن يكذب على أدنى مخلوق بأدنى كذبة ، فكيف يمكن أن يكون في مثل هذا قد كذب على الله رب العالمين ، الذي قد أخبره بما لديه من أليم العقاب ، و ما لمن كذب عليه و افترى ؟! هذا لا يصدر إلا من شر عباد الله و أجرئهم و أخبثهم ، و مثل هذا لا ينجي أمره على الصبيان في المكاتب ، فكيف بأولي الأحلام و النهى ، الذين بذلوا أنفسهم و أموالهم و فارقوا أولادهم و أوطانهم و عشائرهم في حبه و طاعته ؟ رضي الله تعالى عنهم ، و صلى الله عليه وسلم في تعاقب الليل و النهار .

و من ذلك ما أخبر صلى الله عليه وسلم به في هذا القرآن ، و فيما صح عنه من الأحاديث ، من الغيوب المستقبلية المطابقة لخبره حذو القعدة بالقعدة مما يطول استقصاؤه ها هنا .

و من ذلك ما أظهره الله تعالى على يديه من خوارق العادات الباهرة : فمن ذلك : ما أخبر الله عز و جل عنه في كتابه العزيز من انشقاق القمر ، و ذلك أن المشركين سألوه آية و كان ذلك ليلاً ، فأشار إلى القمر ، فصار فرقتين ، فسألوا من حوّلهم من الأحياء ، لئلا يكون قد سحرهم فأخبروهم بمثل ما رأوا ، و هذا متواتر عنه عند أهل العلم بالأخبار ، و قد رواه غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

و من ذلك ما ظهر ببركة دعائه في أماكن يطول بسطها ، و تضيق مجلدات عديدة عن حصرها ، و قد جمع الحافظ

أبو بكر البيهقي رحمه الله تعالى كتاباً شافياً في ذلك مقتدياً بمن تقدمه في ذلك ، كما اقتدى به كثيرون بعده رحمه الله تعالى :

فمن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم دعا الله تعالى في السخلة التي كانت مع ابن مسعود في الرعي ، و سمي الله و حليها ، فدرت عليه ، فشرب و سقى أبا بكر ، وكذلك فعل في شاة أم معبد . و دعا للطفيل بن عمرو ، فصارت آية في طرف سوطه ، نور يلمع يرى من بعد .

و كذلك حصل لأسيد بن الحضير و عباد بن بشر الأنصاري و قد خرجا من عنده في ليلة ظلماء . و دعا الله على السبعة الذي سخرها منه و هو يصلي ، فقتلوا بدر .

و دعا على ابن أبي لهب ، فسلط الله عليه السبع بالشام وفق دعائه عليه السلام . و دعا على سراقه فساخت يدا فرسه في الأرض ، ثم دعا الله فأطلقها و رمى كفار قريش في بدر بقبضة من حصباء فأصاب كلا منهم شيء منها و هزمهم الله . و كذلك فعل يوم حنين سواء .

و أعطى يوم بدر لعكاشة بن محصن جذلاً من حطب فصار في يده سيفاً ماضياً .
و أخبر عمه العباس — و هو أسير — بما دفن هو و أم الفضل من المال تحت عتبة بالهم ، فأقرله بذلك .

و أخبر عمير بن وهب بما جاء له من قتله معتذراً بأنه جاء في فداء أسارى بدر ، فاعترف له بذلك ، وأسلم من و قتله رضي الله عنه . و رد يوم أحد عين قتادة بن النعمان الظفري بعد أن سألت على خده . و قيل : بعدما صارت في يده ، فصارت أحسن عينيه ، فلم تكن تعرف من الأخرى . و أطعم يوم الخندق الجمل الغفير الذين يقاربون ألقاً : من سخلة و صاع شعير بيت جابر . كما أطعم يومئذ من نزر يسير من تمر ، جاءت به ابنة بشير . و كذلك أطعم نحو الثمانين من طعام كادت تواريه يده للمكرمة . و كذلك فعل يوم أصبح عروساً بزيب بنت جحش . و أما يوم تبوك ، فكان أمراً هائلاً ، أطعم الجيش و ملؤوا كل وعاء معهم من قدر ربضة العنز طعاماً . و أعطى أبا هريرة رضي الله عنه مزوداً فأكل منه دهره ، و جهز منه في سبيل الله شيئاً كثيراً و لم يزل معه إلى أيام مقتل عثمان .
و أشياء أخرى من هذا النمط يطول ذكرها مجردة ، و سنفرد لذلك — إن شاء الله تعالى و به الثقة — مصفاً على حدة .

و دعا الله تعالى لما قحطوا فلم ينزل عن المنبر حتى تحدر الماء على لحيته صلى الله عليه وسلم من سقف المسجد ، و قد كان قبله لا يرى في السماء سحابة و لا قرعة و لا قدر الكف ، ثم لما استصحى لهم انجاب السحاب عن المدينة حتى صارت المدينة في مثل الإكليل . و دعا الله على قريش فأصابهم من الجهد ما لا يعبر عنه ، حتى استرحموه ، فعطف عليهم فأفرج عنهم .

و أتى ياناء فيه ماء ليتوضأ به ، فرغب إليه أقوام هناك أن يتوضؤوا معه فوضع يده في ذلك الإناء ، فما وسعها ، ثم دعا الله ، فنبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم .

و كذلك فعل يوم الحديبية ، و كان الجيش ألفاً و أربعمائة ، قال جابر : و لو كنا مائة ألف لكفانا .

و كذلك فعل في بعض أسفره بقطرة من ماء في سقاء ، قال الراوي : لما أمرني أن أفرغها في الوعاء خشيت أن يشربها يابس القرية ، فوضع يده فيها ، و دعا الله تعالى ، فنبع الماء من بين أصابعه لأصحابه ، حتى توضؤوا و شربوا .

و كذلك بعث سهمه إلى عين الحديبية فوضعت فيها فجاشت بالماء حتى كفتهم . و كذلك فعل يوم ذات

السطيحتين ، سقى أصحابه و توضؤوا ، و أمر بعضهم فاغتسل من جنابة كانت عليه ، و لم ينقص من تلك المزدتين اللتين للمرأة شيء ، فذهبت إلى قومها ، فقالت : رأيت اليوم أسحر أهل الأرض ، أو إنه لني . . ! ثم أسلمت ، و أسلم قومها ، رضي الله عنهم .
في كثير من هذا النمط يطول بسطه ، و فيما ذكرنا كفاية إن شاء الله تعالى .

فصل — الإخبار بالغيوب المستقبلية

و قد أخبر بالغيوب المستقبلية المطابقة لخبره ، كما أخبر الله عز و جل في كتابه من إظهار دينه ، و إعلاء كلمته ، و استخلاف الذين آمنوا و عملوا الصالحات من أمته في الأرض ، و كذلك كان .
و أخبر بغلبة الروم فارس في بضع سنين ، فكان كذلك .
و أخبر صلى الله عليه و سلم قومه الذين كانوا معه في الشعب أن الله قد سلط على الصحيفة الأرضة فأكلتها إلا ما كان من ذكر الله ، و كان كذلك . و أخبر يوم بدر قبل الوقعة بيوم بمصارع القتلى واحداً واحداً ، فكان كما أخبر سواء بسواء .

و أخبر أن كنوز كسرى و قيصر ستنفق في سبيل الله ، فكان كذلك . و بشر أمته بأن ملكهم سيمتد في طول الأرض ، فكان كذلك . و أخبر أنه لا تقوم الساعة حتى تقاتل أمته قوماً صغار الأعين ذلف الأنوف كأن وجوههم الجان المطرقة ، و هذه حلية التتار ، فكان كذلك . و أخبر بقتال الخوارج ، و وصف لهم ذا التدية فوجد كما وصف سواء بسواء و أخبر أن الحسن بن علي رضي الله عنهما سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين فكان كذلك . و أخبر بأن عماراً سقتله الفتن الباغية ، فقتل يوم صفين مع علي رضي الله عنهما و أخبر بخروج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى ، و كان ظهور هذه في سنة بضع و خمسين و ستمائة ، و تواتر أمرها ، و أخبرت عمن شاهد إضاءة أعناق الإبل ببصرى ، فصلى الله على رسوله كلما ذكره الذاكرون .
و أخبر بجزيئات كانت و تكون بين يدي الساعة يطول بسطها ، و فيما ذكرنا كفاية ، إن شاء الله ، و به الثقة .

فصل — بشارة الكتب السماوية المقدمة برسول الله صلى الله عليه و سلم

وفي الكتب المقدمة البشارة به ، كما أخبر الله تعالى أن ذلك في التوراة و الإنجيل مكتوب ، و كما أخبر عن نبيه عيسى عليه السلام أنه قال : " ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد " ، و روى البخاري عن عبد الله بن عمرو أنه وجد صفته في التوراة صلى الله عليه و سلم و ذكرها .
و في التوراة اليوم التي يقر اليهود بصحتها في السفر الأول أن الله تعالى تجلى لإبراهيم و قال له ما معناه : [فاسلك في الأرض طولاً و عرضاً لولدك تعظيماً] . و معلوم أنه لم يملك مشارق الأرض و مغاربها إلا محمد صلى الله عليه و سلم كما جاء في الصحيح عنه أنه قال : " إنه زوى لي الأرض مشارقها و مغاربها ، و سيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها " .

و فيه أيضاً : [إن الله تعالى قال لإبراهيم : إن إسحاق يكون لك منه نسل و أما إسماعيل فإني باركته و كثرتة و عظمتة ، و جعلت ذريته بنجوم السماء ...] إلى أن قال : [و عظمتة بماذ ماذ — أي بمحمد ، و قيل : بأحمد — و

قيل : جعلته عظيماً عظيماً وجعل حذاً] .

وفيه : [إن الله و عد إبراهيم أن ولده إسماعيل تكون يده عالية على كل الأمم ، فكل الأمم تحت يده ، و بجميع مساكن إخوته يسكن] ، و قد علم أهل الكتاب و غيرهم أن إسماعيل لم يدخل قط الشام و لا علت يده على إخوته ، و إنما كان هذا لولده محمد صلى الله عليه و سلم ، و لا ملك الشام و مصر من العرب أحد قبل أمة محمد صلى الله عليه و سلم ، فإن فتحهما كان في خلافة الصديق و القاروق رضي الله عنهما .

و في السفر الرابع من التوراة التي بأيديهم اليوم ما معناه : [نبي أقيم لهم من أقاربهم من أخيهام مثلك يا موسى ، أجعل نطقي بفيه] . و معلوم لهم و لكل أحد أن الله عز و جل لم يبعث من نسل إسماعيل سوى محمد صلى الله عليه و سلم ، بل لم يكن في بني إسرائيل نبي يماثل موسى إلا عيسى عليه السلام ، و هم لا يقرون بنبوته ، ثم ليس هو من إخوتهم ، بل هو منتسب إليهم بأمه صلوات الله و سلامه عليه ، فتعين ذلك في محمد صلى الله عليه و سلم .

و من ذلك ما ختمت به التوراة في آخر السفر الخامس ما معناه : [جاء الله من سيناء ، و أشرق من ساعير ، و استعلى من جبال فاران] . و معنى هذا أن الله جاء شرعه و نوره من طور سيناء الذي كلم موسى عليه ، و أشرق من ساعير و هو الجبل الذي ولد به عيسى عليه السلام و بعث فيه ، و استعلى من جبال فاران و هي مكة ، بدليل أن الله أمر إبراهيم صلى الله عليه و سلم أن يذهب بإسماعيل إلى جبال فاران . و قد استشهد بعض العلماء على صحة هذا بأن الله سبحانه أقسم بهذه الأماكن الثلاثة فترقى من الأدنى إلى الأعلى في قوله تعالى " والتين والزيتون * و طور سينين * وهذا البلد الأمين " ، ففي التوراة ذكرهن بحسب الوقوع ، الأول فالأول ، و بحسب ما ظهر فيهن من النور . و في القرآن لما أقسم بهن ذكر منزل عيسى ثم موسى ثم محمد ، صلاة الله و سلامه عليهم أجمعين ، لأن عادة العرب إذا أقسمت ترفت من الأدنى إلى الأعلى . و كذا زبور داود عليه السلام و النبوءات الموجودة الآن بأيدي أهل الكتاب ، فيها البشارات به صلى الله عليه و سلم كما يخبر بذلك من أسلم منهم قديماً و حديثاً . و في الإنجيل ذكر — الفارقليط — موصوفاً بصفات محمد صلى الله عليه و سلم سواء بسواء . و أما كلام أشعيا و أرميا فظاهر جداً لكل من قرأه . و لله الحمد و المنة و الحجة البالغة .

فصل — أولاده

تقدم ذكر أعمامه و عماته عند ذكر نسبه المطهر صلى الله عليه و سلم .

فأما أولاده فذكورهم و إناثهم من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، إلا إبراهيم فمن مارية القطبية ، و هم : القاسم ، و به كان يكنى لأنه أكبر أولاده ، ثم زينب ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة .

ثم بعد النبوة : عبد الله ، و يقال له : الطيب والطاهر ، لأنه ولد في الإسلام . و قيل : الطاهر غير الطيب . و صحح ذلك بعض العلماء . ثم إبراهيم من مارية ، ولد له صلى الله عليه و سلم بالمدينة في السنة الثامنة ، و توفي عن سنة و عشرة أشهر ، فلهذا قال صلى الله عليه و سلم : " أن له مرضعاً في الجنة " .

و كلهم مات قبله ، إلا فاطمة رضي الله عنها فإنما توفيت بعده بيسير ، قيل : ستة أشهر على المشهور . وقيل : ثمانية أشهر ، و قيل : سبعون يوماً ، و قيل : خمسة و سبعون يوماً . وقيل : ثلاثة أشهر ، وقيل : مائة يوم . و قيل : غير ذلك . و صلى عليها علي ، و قيل : أبو بكر . و هو قول غريب . و قد ورد في حديث أنها اغتسلت قبل

موتها ببسبر ، و أوصت ألا تغسل بعد موتها ، و هو غريب جداً ، و روي أن علياً و العباس و أسماء بنت عميس زوجة الصديق و سلمى أم رافع و هي قابلتها غسلوها ، و هذا هو الصحيح .

فصل — زوجاته

في زوجاته رضي الله عنهن :

أول من تزوج صلى الله عليه و سلم خديجة بنت خويلد رضي الله عنها . فكانت وزير صدق له لما بعث ، و هي أول من آمن به على الصحيح . و قيل : أبو بكر . و هو شاذ . و لم يتزوج في حياتها بسواها لجلالها و عظم محلها عنده . و اختلف أيها أفضل هي أو عائشة رضي الله عنهما ؟ فرجح فضل خديجة جماعة من العلماء . و قد ماتت قبل الهجرة [بسنة و نصف] .

ثم تزوج سودة بنت زمعة القرشية العامرية ، بعد موت خديجة بمكة ، و دخل بها هناك ، ثم لما كبرت أراد صلى الله عليه و سلم طلاقها ، فصالحته على أن وهب يومها لعائشة و قيل : له ، فجعله لعائشة . و فيها نزل قوله تعالى : " وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً " الآية . و توفيت في آخر أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

و قيل : تزوج عائشة قبل سودة ، و لكنه لم يبين بها إلا في شوال من السنة الثانية من الهجرة ، و لم يتزوج بكراً سواها ، [و لم يأت الوحي في لحاف امرأة من نسائه سواها] و لم يجب أحد من النساء مثلها ، و قد كانت لها مآثر و خصائص ذكرت في القرآن و السنة ، و لا يعلم في هذه الأمة امرأة بلغت من العلم مبلغها ، و توفيت سنة [سبع و قيل [ثمان و خمسين .

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة الثالثة من الهجرة ، و قد طلقها صلى الله عليه و سلم ، ثم راجعها ، و توفيت سنة إحدى و أربعين . و قيل : و خمسين . و قيل : سنة خمس و أربعين . ثم أم سلمة ، و اسمها هند بنت أبي أمية — و اسمه حذيفة — و يقال : سهيل بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، القرشية ، بعد وفاة زوجها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن مخزوم ، مرجعه من بدر ، فلما انقضت عدتها خطبها صلى الله عليه و سلم ، و هذا يقتضي أن ذلك أول السنة الثالثة ، و قد كان و لي عقدها ابنها عمر ، كما رواه النسائي من طريق حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن ابن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أم سلمة . و قد جمعت جزءاً في ذلك ، و بينت أن عمر المقول له في هذا الحديث إنما هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لأنه كان الخاطب لها على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و قد ذكر الواقدي و غيره أن وليها كان ابنها سلمة ، و هو الصحيح إن شاء الله . و قد ذكر أنه صلى الله عليه و سلم تزوجها بغير ولي ، و الله تعالى أعلم . قال الواقدي : توفيت سنة تسع و خمسين . و قال غيره في خلافة يزيد بن معاوية سنة اثنتين و ستين . ثم تزوج زينب بنت جحش في سنة خمس من ذي القعدة ، و قيل : سنة ثلاث ، و هو ضعيف . و في صبيحة عرسها نزل الحجاب ، كما أخرجه في الصحيحين عن أنس ، و أنه حجبه حينئذ و قد كان عمره لما قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة عشراً ، فدل على أنه كان قد

استكمل خمس عشرة سنة ، . و الله أعلم . و قد كان وليها الله سبحانه و تعالى دون الناس ، قال الله تعالى : " فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها " و روى البخاري في صحيحه بسند ثلاثي أنها كانت تفخر على نساء رسول الله

صلى الله عليه وسلم و تقول : زوجكن أهاليكن و زوجني الله في السماء ، و كانت أول أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاة ، قال الواقدي : توفيت سنة عشرين ، و صلى عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ثم تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية ، و ذلك أنه لما غزا قومها في سنة ست ، بالماء الذي يقال له : المريسيع ، وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، و كاتبها ، فجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها فاشترأها و أعتقها و تزوجها . فقيل : إنما توفيت سنة خمسين . و قال الواقدي : سنة ست و خمسين . ثم تزوج صفية بنت حيي بن أخطب الإسرائيلية الهارونية النضرية ثم الخيرية رضي الله تعالى عنها ، و ذلك أنه صلى الله عليه وسلم اصطفاها من مغام خير ، و قد كانت في أوائل سنة سبع ، فأعتقها و جعل ذلك صداقها ، فلما حلت في أثناء الطريق بنى بها ، و حجها ، فعلموا أنها من أمهات المؤمنين . قال الواقدي : توفيت سنة خمسين ، و قال غيره : سنة ست و ثلاثين ، و الله أعلم . و في هذه السنة ، و قيل : في التي قبلها — سنة ست — تزوج أم حبيبة ، و اسمها رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموية . خطبها عليه عمرو بن أمية الضمري ، و كانت بالحبيشة ، و ذلك حين توفي عنها زوجها عبيد الله بن جحش ، فولي عقدها منه خالد بن سعيد بن العاص ، و قيل : النجاشي ، و الصحيح الأول . و لكن أمهرها النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع مائة دينار ، و جهزها ، و أرسل بها إليه رضي الله عنه .

فأما ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عكرمة بن عمار اليماني " عن أبي زميل سماك بن الوليد عن ابن عباس أن أبا سفيان لما أسلم قال في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم : عندي أحسن العرب و أجمله ، أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكما .. " الحديث . فقد استغرب ذلك من مسلم رحمه الله ، كيف لم ينتبه لهذا ؟ لأن أبا سفيان ، إنما أسلم ليلة الفتح ، و قد كانت بعد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بسنة و أكثر ، و هذا مما لا خلاف فيه . و قد أشكل هذا على كثير من العلماء : فأما ابن حزم فزعم أنه موضوع و ضعف عكرمة بن عمار ، و لم يقل هذا أحد قبله و لا بعده . و أما محمد بن طاهر المقدسي فقال : أراد أبو سفيان أن يجدد العقد لئلا يكون تزوجها بغير إذنه غضاضة عليه ، أو أنه توهم أن بإسلامه يفسخ نكاح ابنته ، و تبعه على هذا أبو عمرو بن الصلاح و أبو زكريا النووي في شرح مسلم ، و هذا بعيد جداً ، فإنه لو كان كذلك لم يقل : عندي أحسن العرب و أجمله ، إذ رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ سنة فأكثر ، و توهم فسخ نكاحها بإسلامه بعيد جداً ، و الصحيح في هذا أن أبا سفيان لما رأى صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفاً أحب أن يزوجه ابنته الأخرى وهي عزة ، و استعان على ذلك بأختها أم حبيبة ، كما أخرجنا في الصحيحين " عن أم حبيبة أنها قالت : يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان ، قال : أوتحين ذلك ؟ قالت : نعم .. " الحديث . و في صحيح مسلم أنها قالت : يا رسول الله ، انكح أختي عزة بنت أبي سفيان .. الحديث . و على هذا فيصح الحديث الأول ، و يكون قد وقع الوهم من بعض الرواة في قوله : و عندي أحسن العرب و أجمله : أم حبيبة . و إنما قال : عزة . فاشتبه على الراوي ، أو أنه قال الشيخ : يعني ابنته ، فتوهم السامع أنها أم حبيبة ، إذ لم يعرف سواها . و لهذا النوع من الغلط شواهد كثيرة قد أفردت سرد ذلك في جزء مفرد لهذا الحديث و لله الحمد و

المنة . و توفيت أم حبيبة رضي الله عنها سنة أربع و أربعين فيما قاله أبو عبيد ، و قال أبو بكر بن أبي خيثمة : سنة تسع و خمسين قبل أخيها معاوية بسنة .

ثم تزوج في ذي القعدة من هذه السنة ميمونة بنت الحارث الهلالية و اختلف هل كان محرماً أو لا ؟ فأخرج صاحباً

الصحيح عن ابن عباس أنه كان محرماً . فقيل : كان ذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم لما رواه مسلم " عن عثمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا ينكح المحرم ولا ينكح ولا يخطب " و اعتمد أبو حنيفة على الأول ، و حمل حديث عثمان على الكراهة ، و قيل : بل كان حلالاً كما رواه مسلم عن ميمونة أنها قالت : تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو حلال ، و بنى بها و هو حلال . و قد قدم جمهور العلماء هذا الحديث على قول ابن عباس ، لأنها صاحبة القصة فهي أعلم . و كذا أبو رافع أخبر بذلك كما رواه الترمذي عنه ، و قد كان هو السفير بينهما . و قد أجيب عن حديث ابن عباس بأجوبة ليس هذا موضعها . و ماتت بسرف حيث بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم منصرفه من عمرة القضاء ، و كان موثقاً سنة إحدى و خمسين ، و قيل سنة ثلاث ، و قيل : ست و ستين ، و صلى عليها ابن أختها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . فهؤلاء التسع بعد خديجة اللواتي جاء في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم مات عنهن و في رواية في الصحيح أنه مات عن إحدى عشرة ، و الأول أصح . و قد قال قتادة بن دعامة أنه صلى الله عليه وسلم تزوج خمس عشرة امرأة ، فدخل بثلاث عشرة ، و جمع بين إحدى عشرة ، و مات عن تسع . و قد روى الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي نحو هذا عن أنس في كتابه المختارة فهذا هو المشهور . و قد رأيت لبعض أئمة المتأخرين من المالكية و غيرهم في كتاب النكاح تعداد زوجات لم يدخل بهن مع اللواتي دخل بهن ما ينيف على العشرين .

و قد كان له من السراري اثنتان . و هما : مارية بنت شمعون القبطية ، أم إبراهيم ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أهداها له المقوقس صاحب إسكندرية و مصر ، و معها أختها شيرين و خصي يقال له مابور و بغلة يقال لها : الدلدل ، فوهب صلى الله عليه وسلم شيرين إلى حسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن . و توفيت مارية في محرم سنة ست عشرة ، و كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحشر الناس لجنازتها بنفسه ، و صلى عليها و دفنها بالقيع رضي الله عنها .

و أما الثانية فريحانة بنت عمرو ، و قيل : بنت زيد ، اصطفاها من بني قريظة و تسرى بها ، و يقال : إنه تزوجها ، و قيل : بل تسرى بها ، ثم أعتقها فلحقت بأهلها . و ذكر بعض المتأخرين أنه تسرى أمتين أخريين ، و الله تعالى أعلم .

فصل — مواليه

في ذكر موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم على حروف المعجم رضي الله عنهم أجمعين ، و ذلك حسبما أورده الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في أول تاريخه و هم :

أحمر ، و يكنى أبا عسيب ، و أسود ، و أفلح ، و أنس ، و أيمن بن أم أيمن ، و باذام ، و ثوبان بن بجدد ، و ذكوان — و قيل : طهمان ، و قبل : كيسان . و قيل : مروان . و قيل : مهران — و رافع ، و رباح ، و رويغ ، و زيد بن حارثة ، و زيد جد هلال بن يسار ، و سابق ، و سالم ، و سعيد و سفينة ، و سلمان الفارسي ، و سليم — و يكنى بأبي كبشة ، ذكر فيمن شهد بدرًا — و صالح [شقران] ، و ضميرة بن أبي ضميرة ، و عبيد الله بن أسلم ، و عبيد ، و عبيد أيضاً — و يكنى بأبي صفية — و فضالة اليماني ، و قصير ، و كركرة — بكسرهما ، و يقال : بفتحهما — و مابور القبطي ، و مدعم ، و ميمون ، و نافع ، و نبيل ، و هرمز ، و هشام ، و واقد ، و وردان ، و يسار [نوبي] ، و أبو أثيلة ، و أبو بكر ، و أبو الحمراء ، و أبو رافع و اسمه أسلم — فيما قيل — و أبو عبيد .

فهؤلاء الذين حررهم أبو زكريا النووي رحمه الله تعالى في أول كتابه تهذيب الأسماء واللغات ، إلا أبي رتبهم على الحروف ليكون أسهل للكشف .

و أما إمؤه : فأمية ، و بركة — أم أيمن ، و هي أم أسامة بن زيد — و خضرة ، و رضوى ، و ريحانة ، و سلمة — و هي أم رافع امرأة أبي رافع — و شيرين ، و أختها مارية أم إبراهيم عليه السلام ، و ميمونة بنت سعد ، و أم ضميرة ، و أم عياش .
قال أبو زكريا رحمه الله تعالى : و لم يكن ملكه صلى الله عليه و سلم هؤلاء في زمن واحد ، بل في أوقات متفرقة .

فصل — خدمه

و قد التزم جماعة من الصحابة رضي الله عنهم بخدمته ، كما كان عبد الله بن مسعود صاحب نعليه ، إذا قام ألبسه إياهما ، و إذا جلس جعلهما في ذراعيه حتى يقوم ، و كان المغيرة بن شعبه سيفاً على رأسه . وعقبة بن عامر صاحب بغلته ، يقود به في الأسفار . و أنس بن مالك ، و ربيعة بن كعب ، و بلال ، و ذو مخبر ، و يقال : ذو مخمر — ابن أخي النجاشي ملك الحبشة ، و يقال : ابن أخته — و غيرهم .

فصل — كتاب الوحي —

أما كتاب الوحي : فقد كتب له أبو بكر ، و عمر ، و عثمان ، وعلي ، و الزبير ، و أبي بن كعب ، و زيد بن ثابت ، و معاوية بن أبي سفيان ، و محمد بن مسلمة ، و الأرقم بن أبي الأرقم ، و أبان بن سعيد بن العاص ، و أخوه خالد ، و ثابت بن قيس ، و حنظلة بن الربيع الأسدي الكاتب ، و خالد بن الوليد و عبد الله بن الأرقم ، و عبد الله بن زيد بن عبد ربه ، و العلاء بن عتبة ، و المغيرة بن شعبه ، و شرحبيل بن حسنة ، و قد أورد ذلك الحافظ أبو القاسم في كتابه أتم إيراد ، و أسند ما أمكنه عن كل واحد من هؤلاء إلا شرحبيل بن حسنة ، و ذكر فيهم السجل ، كما رواه أبو داود و النسائي عن ابن عباس في قوله تعالى " يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب " قال : هو كاتب كان للنبي صلى الله عليه و سلم . و قد أنكر هذا الحديث الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسيره ، و قال : لا يعرف في كتاب النبي صلى الله عليه و سلم ، بل و لا في أصحابه أحد يسمى [سجلاً] .
قلت : و قد أنكره أيضاً غير واحد من الحفاظ ، و قد أفردت له جزءاً ، و بينت طرقه و علله ، و من تكلم فيه من الأئمة ، و من ذهب منهم إلى أنه حديث موضوع ، و الله تعالى أعلم .

فصل — المؤذنون —

كان له صلى الله عليه و سلم مؤذنون أربعة : بلال بن رباح ، و عمرو بن أم مكتوم الأعمى — و قيل : اسمه عبد الله — و كانا في المدينة يتناوبان في الآذان . و سعد القرظ بقاء ، و أبو مخنورة بمكة ، رضي الله عنهم .

فصل — نوقه و خيوله —

و كان له صلى الله عليه و سلم من النوق : العضباء ، و الجدعاء ، و القصواء ، و روي عن محمد ابن إبراهيم التيمي أنه قال : إنما كان له ناقة واحدة موصوفة بهذه الصفات الثلاث ، و هذا غريب جداً ، حكاها النووي . و

كان له من الخيل السكب — و كان أغر محجلاً طلق اليمين ، و هو أول فرس غزا عليه — و سبحة ، و هو الذي سابق عليه . و هو الذي اشتراه من الأعرابي ، و شهد فيه خزيمة بن ثابت . و قال سهل بن سعد : كان له ثلاثة أفراس : لزاز و الطرب ، و اللخيف ، و قيل بالحاء المهملة ، و قيل النخيف ، فهذه ستة ، و سابعة وهي الورد ، أهداها له تميم الداري .

و كانت له بغلة يقال لها الدلدل ، أهداها له المقوقس ، و حضر بها يوم حنين ، و قد عاشت بعده صلى الله عليه و سلم حتى كان يحسى لها الشعر لما سقطت أسننها ، و كانت عند علي ، ثم بعده عند عبد الله بن جعفر . و كان له حمار يقال له : عفير ، بالعين المهملة ، و قيل بالمعجمة — قاله عياض — قال النووي ، و اتفقوا على تغليطه في ذلك .

قلت و أغرب من هذا كله رواية أبي القاسم السهيلي في روضه الحديث المشهور في قصة عفير أنه كلم النبي صلى الله عليه و سلم ، و قال إنه من نسل سبعين حمراً كل منها ركه نبي ، و أن اسمه يزيد بن شهاب ، و أنه كان يبعثه النبي صلى الله عليه و سلم في الحاجات إلى أصحابه .

فهذا شيء باطل لا أصل له من طريق صحيح و لا ضعيف إلا ما ذكره أبو محمد بن أبي حاتم من طريق منكر مردود ، و لا شك أهل العلم بهذا الشأن أنه موضوع ، و قد ذكر هذا أبو إسحاق الإسفراييني و إمام الحرمين ، حتى ذكره القاضي عياض في كتابه الشفاء استطراداً ، و كان الأولى ترك ذكره لأنه موضوع . سألت شيخنا أبا الحجاج عنه فقال : ليس له أصل وهو ضحكة . و كان له صلى الله عليه و سلم في وقت عشرون لقحة ، و مائة من الغنم .

فصل — سلاحه —

و كان له من آلات الحرب : ثلاثة أرماح ، و ثلاث أقواس ، و ستة أسياف ، منها ذو الفقار ، تنفله يوم بدر ، و درع ، و ترس ، و خاتم ، و قدح غليظ من خشب ، و راية سوداء مربعة ، و لواء أبيض ، و قيل : أسود .

فصل — رسله إلى الملوك —

في ذكر رسله إلى ملوك الآفاق . أرسل صلى الله عليه و سلم عمرو بن أمية الضمري إلى الجاشي بكتاب ، فأسلم رضي الله عنه و نور ضريحه .

و دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل عظيم الروم ، فقارب و كاد و لم يسلم ، و قال بعضهم : بل أسلم ، و قد روى سنيد بن داود في تفسيره حديثاً مرسلاً فيه ما يدل على إسلامه ، و روى أبو عبيد في كتاب الأموال حديثاً مرسلاً أيضاً فيه تصريح بعدم إسلامه .

و بعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس ، فتكبر و مزق كتابه صلى الله عليه و سلم ، فمزقه الله و ممالكه كل ممزق بدعوة رسول الله صلى الله عليه و سلم عليه بذلك .

و حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية و مصر ، فقارب و لم يذكر له إسلام ، و بعث الهدايا إليه صلى الله عليه و سلم و التحف .

و عمرو بن العاص إلى ملكي عمان فأسلما ، و خليا بين عمرو و الصدقة و الحكم بين الناس ، رضي الله عنهما .

و سليط بن عمرو العامري إلى هوزة بن علي الحنفي باليمامة .

و شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء من الشام .

و المهاجر بن أبي أمية للخزومي إلى الحارث الحميري .
و العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين فأسلم .
و أرسل أبا موسى الأشعري و معاذ بن جبل كليهما إلى أهل اليمن فأسلم عامة ملوكهم و سوقتهم .

فصل — صفته الظاهرة

في صفته الظاهرة ، و قد صنف العلماء في هذا الباب ، فأحسن من جمع في ذلك الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي رحمه الله تعالى ، أعني كتاب الشمائل ، و تبعه العلماء و الأئمة . و قد استوعى ذلك بأسانيد ، و شرحه مطولاً الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله تعالى ، و شيخنا الإمام الحافظ أبو الحجاج المزني في تهذيب الكلام . و قد ذكر الشيخ أبو زكريا النووي في تهذيبه فصلاً مختصراً فيه قال : كان صلى الله عليه و سلم ليس بالطويل البائن و لا القصير ، و لا الأبيض الأمهق ، و لا الآدم ، و لا الجعد القطط و لا السبط .
و توفي و ليس في رأسه عشرون شعرة بيضاء ، و كان حسن الجسم بعيد ما بين المنكبين ، له شعر إلى منكبيه ، و في وقت إلى شحمة أذنيه . و في وقت إلى نصف أذنيه ، كث اللحية ، شثن الكفين ، أي غليظ الأصابع ، ضخم الرأس و الكراديس ، في وجهه تلوير ، أدعج العينين طويل أهدابهما ، أحمر الماقي ذا مشربة ، و هي الشعر الدقيق من الصدر إلى السرة ، كالقضب ، إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صلب أي يمشي بقوة ، و الصبب : الحدور .
يتلألاً و وجهه تالؤ القمر ليلة البدر ، كان وجهه كالقمر ، حسن الصوت ، سهل الخدين ، ضليع القم ، سواء الصدر و البطن ، أشعر المنكبين و الذراعين و أعالي الصدر ، طويل الزندين رحب الراحة ، أشكل العينين ، أي طويل شقهما ، منهوس العينين ، أي قليل لحم العقب ، بين كتفيه خاتم النبوة ، كزر الحجلة و كبيضة الحمامة . و كان إذا مشى كأنما تطوى له الأرض ، و يجدون في لحاقه و هو غير مكترث . و كان يسدل شعر رأسه ، ثم فرقه ، و كان يرجله ، و يسرح لحيته و يكتحل بالإثمد كل ليلة ، في كل عين ثلاثة أطراف عند النوم .

و كان أحب الثياب إليه القميص والبياض و الحبرة ، و هي ضرب من البرود فيه حمرة ، و كان كم قميصه صلى الله عليه و سلم إلى الرسغ ، و ليس في وقت حلة حمراء و إزاراً و رداء ، و في وقت ثوبين أخضرين ، و في وقت جبة ضيقة الكمين ، و في وقت قباء ، و في وقت عمامة سوداء ، و أرخى طرفها بين كتفيه ، و في وقت مرطاً أسود أي كساء ، و ليس الخاتم و الخف و النعل .
انتهى ما ذكره .

و قال أنس بن مالك رضي الله عنه : ما مسست ديباجاً و لا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و لا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه و سلم و لقد خدمت رسول الله صلى الله عليه و سلم عشر سنين فما قال لي أف قط . و لا قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ و لا لشيء لم أفعله : ألا فعلت كذا ؟
رواه مسلم . و قال عبد الله بن سلام : لما قدم النبي صلى الله عليه و سلم المدينة انجفل الناس إليه ، فلما نظرت إليه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، صلى الله عليه و سلم صلاة دائمة إلى يوم الدين و سلم تسليماً كثيراً .

فصل — أخلاقه الطاهرة

و أما أخلاقه الطاهرة ، فقد قال الله سبحانه : " ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجراً غير ممنون * وإنك لعلی خلق عظیم " ، و في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن . و معنى هذا أنه صلى الله عليه وسلم قد ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمره به القرآن ، و لا يترك إلا ما نهى عنه القرآن ، فصار امتثال أمر ربه خلقاً له و سجية ، صلوات الله و سلامه عليه إلى يوم الدين . و قد قال الله تعالى : " إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم " فكانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم أشرف الأخلاق و أكرمها و أبرها وأعظمها : فكان أشجع الناس و أشجع ما يكون عند شدة الحروب . و كان أكرم الناس ، و أكرم ما يكون في رمضان .

و كان أعلم الخلق بالله ، و أفصح الخلق نطقاً ، و أنصح الخلق للخلق ، و أحلم الناس . و كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعاً في وقار ، صلوات الله و سلامه عليه إلى يوم الدين . قالت قيلة بنت مخزومة في حديثها عند أبي داود : فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المتخشع في جلسته أرعدت من الفرق . و في السيرة أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة يوم الفتح جعل يطأطئ رأسه من التواضع ، حتى إن مقدم رحله ليصيب عثونه ، وهو من شعر اللحية . و كان أشد حياء من العذراء في خدرها ، و مع ذلك فأشد الناس بأساً في أمر الله ، و روي عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم : " أنا الضحوك القتال " . و هكذا مدح الله عز و جل أصحابه حيث قال تبارك و تعالى : " محمد رسول الله و الذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم " . و ستأتي إن شاء الله تعالى بقية أو صافه الجميلة مستقصاة فيما نورده من الأحاديث بعد هذا إن شاء الله تعالى و به المستعان .

فصل — الأماكن التي حلها

في ذكر الأماكن التي حلها صلوات الله و سلامه عليه . و هي الرحلات النبوية . قدم الشام مرتين : الأولى مع عمه أبي طالب في تجارة له ، و كان عمره إذ ذاك ثني عشرة سنة ، و كان من قصة بحيرا و تبشيره به ما كان من الآيات الي رآها ، مما بهر العقول ، و ذلك مبسوط في الحديث الذي رواه الترمذي مما تفرد به قراد أبو نوح ، و اسمه عبد الرحمن بن غزوان ، و هو إسناده صحيح ، و لكن في متنه غرابة قد بسط الكلام عليه في موضع آخر ، و فيه ذكر الغمامة و لم أرها ذكراً في حديث ثابت أعلمه سواه . المقدمة الثانية في تجارة لخديجة بنت خويلد و صحبتته مولاه ميسرة ، فبلغ أرض بصرى ، فباع ثم التجارة و رجع ، فأخبر ميسرة مولاته بما رأى عليه صلى الله عليه وسلم من لوائح النبوة ، فرغبت فيه و تزوجته ، و كان عمره حين تزوجها — على ما ذكره أهل السير — خمساً و عشرين سنة .

و تقدم أنه صلى الله عليه وسلم أسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فاجتمع بالأنبياء و صلى بهم فيه ، ثم ركب إلى السماء ثم إلى ما بعدها من السموات سماء سماء ، و رأى الأنبياء هناك على مراتبهم ، و يسلم عليهم و يسلمون عليه ، ثم صعد إلى سدرة المنتهى فرأى هناك جبريل عليه السلام على الصورة التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، و دنا الجبار رب العزة فتدلى كما يشاء على ما ورد في الحديث الشريف ، فرأى من آيات ربه

الكبرى كما قال تعالى : " لقد رأى من آيات ربه الكبرى " ، و كلمه ربه سبحانه و تعالى على أشهر قولي أهل الحديث ، و رأى ربه عز و جل بصره على قول بعضهم ، وهو اختيار الإمام أبي بكر بن خزيمة من أهل الحديث ، و تبعه في ذلك جماعة من المتأخرين . و روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رآه بفؤاده مرتين . و أنكرت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها رؤية البصر ، و روى مسلم عن أبي ذر قلت : يا رسول الله ، رأيت ربك ؟ فقال : " نور ، أنى أراه ؟ " و إلى هذا مال جماعة من الأئمة قديماً و حديثاً اعتماداً على هذا الحديث ، و اتباعاً لقول عائشة رضي الله عنها . قالوا : هذا مشهور عنها ، و لم يعرف لها مخالف من الصحابة إلا ما روي عن ابن عباس أنه رآه بفؤاده ، و نحن نقول به ، و ما روي في ذلك من إثبات الرؤيا بالبصر فلا يصح شيء من ذلك لا مرفوعاً ، بل و لا موقوفاً ، و الله أعلم . و رأى الجنة و النار والآيات العظام ، و قد فرض الله سبحانه عليه الصلاة ليلتذ خمسين ثم خففها إلى خمس ، و تردد بين موسى عليه السلام و بين ربه جل و عز في ذلك ، ثم أهبط إلى الأرض إلى مكة إلى المسجد الحرام ، فأصبح يخبر الناس بما رأى من الآيات .

فأما الحديث الذي رواه النسائي في أول كتاب الصلاة " أخبرنا عمرو بن هشام حدثنا مخلد هو ابن يزيد عن سعيد بن عبد العزيز ، حدثنا يزيد بن أبي مالك ، حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أتيت بدابة فوق حمار و دون البغل ، خطوها عند منتهى طرفها ، فركبت و معي جبريل عليه السلام ، فسرت ، فقال : انزل فصل ، ففعلت ، فقال : أتدري أين صليت صليت بطيبة ، و إليها المهاجر . ثم قال : انزل فصل ، فصليت ، فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت بطور سيناء ، حيث كلم الله موسى . ثم قال : انزل فصل ، فصليت فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى . ثم دخلت بيت المقدس ، فجمع لي الأنبياء ، فقدمني جبريل حتى أمتهم ، ثم صعد بي إلى السماء الدنيا .. " و ذكر بقية الحديث ، فإنه حديث غريب منكر جداً و إسناده مقارب . و في الأحاديث الصحيحة ما يدل على نكارتة ، و الله أعلم .

و كذلك الحديث الذي تفرد به بكر الله زياد الباهلي المتروك ، " عن عبد الله بن المبارك ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن زرار بن أوفى ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ليلة أسري بي قال لي جبريل : هذا قبر أبيك إبراهيم انزل فصل فيه " لا يثبت أيضاً ، لحال بكر بن زياد المذكور . و هكذا الحديث الذي رواه ابن جرير في أول تاريخه من حديث أبي نعيم عمر بن الصبح ، أحد الكذابين المعترفين بالوضع عن مقاتل بن حيان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أنه صلى الله عليه و سلم ليلة أسري به ذهب إلى يأجوج و مأجوج ، فدعاهم إلى الله عز و جل فأبوا أن يجيبوه ، ثم انطلق به جبريل عليه السلام إلى اللدينتين — يعني [جابلق] ، و هي مدينة بالشرق و أهلها من بقايا عاد ، و من نسل من آمن منهم ، ثم إلى جابر ، و هي بالمغرب ، و أهلها من نسل من آمن من ثمود — فدعا كل منهما إلى الله عز و جل ، فأمنوا به . و في الحديث أن لكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب ، ما بين كل بابين فرسخ ، ينوب كل يوم على باب عشرة آلاف رجل يحرسون ، ثم لا تنوهم الحراسة بعد ذلك إلى يوم ينفخ في الصور ، فو الذي نفس محمد بيده لولا كثرة هؤلاء القوم و ضجيج أصواتهم لسمع الناس من جميع أهل الدنيا هدة وقعة الشمس حين تطلع و حين تغرب و من ورائهم ثلاث أمم : منسك وتافيل ، و تاريس ، و فيه أنه صلى الله عليه و سلم دعا هذه الثلاث أمم ، فكفروا و أنكروا ، و هم مع يأجوج و مأجوج . و ذكر حديثاً طويلاً لا يشك من له أدنى علم أنه موضوع ، و إنما نبهت عليه ها هنا ليعرف حاله فلا يغتر به ، و لأنه من ملازم ما ترجمنا القصل به ، و من توابع ليلة الإسراء ، و الله أعلم .

قد قدمنا أنه صلى الله عليه وسلم سمع كلام ربه عز وجل وخطابه له ليلة الإسراء ، حيث يقول صلى الله عليه وسلم : " فنوديت أن قد أتممت فريضتي وخففت عن عبادي ، يا محمد : إنه لا يبدل القول لدي ، هي خمس ، و هي خمسون " . فمثل هذا لا يقوله إلا رب العالمين كما في قوله تعالى لموسى : " إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري " ، قال علماء السلف وأئمتهم : هذا من أدل الدلائل على أن كلام الله غير مخلوق ، لأن هذا لا يقوم بذات مخلوقة ، وقال جماعة منهم : من زعم أن قوله تعالى : " إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني " مخلوق ، فهو كافر ، لأنه بزعمه يكون ذلك الخلق المخلوق قد دعا موسى إلى عبادته ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع . وقد روى صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل أحاديث كثيرة ، كحديث : " يا عبادي ، كلكم جائع إلا من أطمعته .. " الحديث وقد رواه مسلم ، وله أشباه كثيرة . وقد أفرد العلماء في هذا الفصل مصنفات في ذكر الأحاديث الإلهية ، فجمع زاهر بن طاهر في ذلك مصنفاً ، وكذلك الحافظ الضياء أيضاً ، وجمع علي بن بلبان مجلداً رأيته ، يشتمل على نحو من مائة حديث .

وقد ذهب جماعة من أهل الحديث والأصول أن السنة كلها بالوحي لقوله تعالى : " وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى " وهذه للسألة مقررة في كتب الأصول ، وقد أتقنها الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه المدخل إلى السنن . واختلفوا هل رأى ربه سبحانه كما قدمنا .

وقد رأى جبريل عليه السلام هناك على صورته ، وكان قد رآه قبل ذلك منهبطاً من السماء إلى الأرض على الصورة التي خلق عليها ، وذلك في ابتداء الوحي ، وهو المعنى بقوله تعالى : " علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى " فالصحيح من قول المفسرين — بل المقطوع به — أن المتدلي في هذه الآية هو جبريل عليه السلام ، كما أخرجاه في الصحيحين " عن عائشة رضي الله عنها : أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : ذاك جبريل " فقد قطع هذا الحديث النزاع و أزاح الإشكال .

وقد قدمنا أنه اجتمع بالأنبياء ورآهم على مراتبهم ، ورأى خازن الجنة وخازن النار ، وشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، و تلقاه المقربون في الأخرى . وفي السنن أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ما مررت ليلة أسري بي بملا من الملائكة إلا قالوا : يا محمد ! مر أمتك بالحجامة " . تفرد به عباد بن منصور . وفي حديث آخر إلا قالوا : " مر أمتك يستكثروا من غراس الجنة : سبحان الله والحمد لله . . . " الحديث . وهما غريبان .

ونزل عليه جبريل عليه السلام بالقرآن عن الله عز وجل على قلبه الكريم ، وفي الصحيحين أنه أتاه ملك الجبال يوم قرن الثعالب برسالة من الله تعالى فقال : إن شاء أن يطبق عليهم الأخشبين فقال : بل أستأني بهم . وفي صحيح مسلم أن ملكاً نزل بالآيتين من آخر سورة البقرة . وفي مغازي الأموي عن أبيه قال : وزعم الكلبي " عن أبي صالح عن ابن عباس قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يجمع الأقباض وجبريل عن يمينه ، إذ أتاه ملك من الملائكة قال : يا محمد ، إن الله يقرأ عليك السلام ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو السلام ، ومنه السلام ، وإليه السلام فقال الملك : إن الله يقول لك : إن الأمر : الذي أمرك به الحباب بن المنذر ، فقال صلى الله

عليه و سلم لجبريل عليه السلام أتعرف هذا ؟ قال : ما كل أهل السماء أعرف ، وإنه لصادق و ما هو بشيطان " .
و هذا و إن كان إسناده ليس بذلك إلا أن له شاهداً ، و ذلك أنه صلى الله عليه و سلم لما نزل على أدنى مياه بدر
قال له الحباب بن المنذر : يا رسول الله ، إن كنت نزلت هذا المنزل بأمر الله فذاك ، و إن كنت إنما نزلته للحرب و
المكيدة فليس بمنزل . قال : بل للحرب و المكيدة قال : فانطلق حتى تجلس على أدنى المياه من القوم و نعور ما
وراءنا من المياه ، كما تقدم في قصة بدر .
و قد روي أنه صلى الله عليه و سلم حدث عن قس بن ساعدة الإيادي بما سمعه يقول بسوق عكاظ ، و في سنده
نظر .

و في صحيح مسلم عن فاطمة بنت قيس أنه صلى الله عليه و سلم حدث على المنبر عن تميم الداري بقصة الدجال

فصل — السماع منه

و سمع منه أصحابه بمكة و المدينة و غيرهما من البلدان التي غزا إليها و حلها ، و بعرفة ، و منى ، و غير ذلك . و
قد سمع منه الجن القرآن و هو يقرأ بأصحابه بعكاظ ، و جازوه فسألوه عن أشياء ، و مكث معهم ليلة شهدا عبد
الله بن مسعود ، إلا أنه غير مباشر لهم . لكنه كان ينتظر رسول الله صلى الله عليه و سلم في مكان محوط عليه لتلا
يصبيه سوء ، فأسلم منهم طائفة من جن نصيين رضي الله عنهم أجمعين . و قد روي في الغيلانيات خبراً من حديث
رجل منهم يقال له عبد الله سمحج ، و في إسناده غرابة .
و قد جاءه جبريل في صورة رجل أعرابي فحدثه عن الإسلام و الإيمان و الإحسان و أمارات الساعة .

فصل — عدد المسلمين حين وفاته ، و عدد من روى عنه من الصحابة

قال الإمام أبو عبد الله الشافعي رحمه الله : توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم و المسلمون ستون ألفاً ، ثلاثون
ألفاً بالمدينة ، و ثلاثون ألفاً في غيرها .
و قال الحافظ أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي رحمه الله تعالى : توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم و قد
راه و سمع منه زيادة على مائة ألف .
و قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري : روى عنه صلى الله عليه و سلم أربعة آلاف
صحابي .

قلت : قد أفرد الأئمة أسماء الصحابة في مصنفات على حدة ، كالبخاري في أول تاريخه الكبير ، و ابن أبي خيثمة ،
و الحافظ أبي عبد الله بن مندة ، و الحافظ أبي نعيم الأصبهاني ، و الشيخ الإمام أبي عمر بن عبد البر ، و غيرهم . و
قد أفرد أبو محمد بن حزم أسماءهم في جزء جمعه من الإمام بقي بن مخلد الأندلسي ، رحمه الله تعالى ، و ذكر ما روى
كل واحد منهم . و سنفرد ذلك في فصل بعد إن شاء الله تعالى ، و نضيف إليه ما ينبغي إضافته ، و إن يسر الكريم
الوهاب ذكرت من المسانيد و السنن ما روى كل صحابي من الأحاديث ، و تكلمت على كل منهما ، و بينت
حاله من صحة و ضعف إن شاء الله تعالى و به الثقة و عليه التكلان ، و لا حول و لا قوة إلا بالله العزيز الحكيم .

فصل — خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم —

في ذكر شيء من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم التي لم يشاركه فيها غيره . و قد أكثر أصحابنا و غيرهم من ذكر هذا الفصل في أوائل كتب النكاح من مصنفاتهم ، تأسيساً بالإمام أبي عبد الله صاحب المنهج ، فإنه ذكر طرفاً من ذلك هنالك و حكى الصيمري عن أبي علي بن خيران أنه منع من الكلام في خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحكام النكاح ، و كذا في الإمامة ، و وجهه أن ذلك قد اقتضى فلا عمل يتعلق به ، و ليس فيه من دقيق العلم ما يقع به التدريب ، فلا وجه لتضييع الزمان برجم الظنون فيه . قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح بعد حكايته ذلك : و هذا غريب مليح ، و الله أعلم .

و قال إمام الحرمين : قال المحققون : و ذكر الخلاف في مسائل الخصائص خبط لا فائدة فيه ، فإنه لا يتعلق به حكم ناجز تمس الحاجة إليه ، و إنما يجري الخلاف فيما لا نجد بداً من إثبات حكم فيه ، فإن الأقيسة لا مجال لها ، و الأحكام الخاصة تتبع فيها النصوص ، و ما لا نص فيه فالخلاف فيه هجوم على الغيب من غير فائدة . و قال الشيخ أبو زكريا النووي : الصواب الحزم بجواز ذلك ، بل باستجابته و لو قيل بوجوبه لم يكن بعيداً إذ لم يمنع منه إجماع ، و ربما رأى جاهل بعض الخصائص ثابتاً في الصحيح فيعمل به أخذاً بأصل التأسسي ، فوجب بيانها لتعرف ، فلا يشاركه فيها ، و أي فائدة أعظم من هذه ؟ ! و أما ما يقع في أثناء الخصائص مما لا فائدة فيه اليوم فقليل جداً لا تحلو أبواب الفقه عن مثله للتدرب و معرفة الأدلة . و أما جمهور الأصحاب فلم يعرجوا على ما ذكره إبي خيران و إمام الحرمين ، بل ذكروا ذلك مستقصى لزيادة العلم ، لا سيما الإمام أبو العباس أحمد بن أبي أحمد بن القاص الطبري صاحب كتاب التلخيص . و قد رتب الحافظ أبو بكر البيهقي على كلامه في ذلك سننه الكبير ، و لكن فرع كثيراً من ذلك على أحاديث فيها نظر ، سأذكرها إن شاء الله تعالى .

و قد رتبوا الكلام فيها على أربعة أنحاء :

الأول : ما وجب عليه دون غيره .

الثاني : ما حرم عليه دون غيره .

الثالث : ما أئح له دون غيره

الرابع : ما اختص به من الفضائل دون غيره .

فذكروا في كل منها أحكام النكاح و غيرها ، و قد رأيت أن أرتبها على نوع آخر أقرب تناولاً مما ذكروا إن شاء الله تعالى ، فأقول و بالله التوفيق :

الخصائص على قسمين :

أحدهما : ما اختص به عن سائر إخوانه من الأنبياء ، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين .

الثاني : ما اختص به من الأحكام دون أمته .

القسم الأول — ما اختص به دون غيره من الأنبياء —

أما القسم الأول : ففي الصحيحين " عن جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، و جعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً ، فأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، و أحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد

قبلي ، و أعطيت الشفاعة ، و كان النبي يعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة " . فقوله صلى الله عليه و سلم : " نصرت بالرعب مسيرة شهر " ، قيل : كان إذا هم بغزو قوم أرهبوا منه قبل أن يقدم عليهم بشهر ، و لم يكن هذا لأحد سواه . وما روي في صحيح مسلم في قصة نزول عيسى عليه الصلاة و السلام إلى الأرض ، و أنه لا يدرك نفسه كافراً إلا مات ، و نفسه ينتهي حيث ينتهي بصره ، فإن كان ذلك صفة له لم تنزل من قبل أن يرفع : فليست نظير هذا ، و إلا فهو بعد نزوله إلى الأرض أحد أمة محمد صلى الله عليه و سلم ، يعني أنه يحكم بشرعه و لا يوحى إليه ، بخلافها . و الله تعالى أعلم .

و أما قوله صلى الله عليه و سلم : " و جعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً " فمعنى ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده : " إن من كان قبلنا كانوا لا يصلون في مساكنهم ، وإنما كانوا يصلون في كنائسهم " . و قوله [و طهوراً] يعني به التيمم ، فإنه لم يكن في أمة قبلنا ، و إنما شرع له صلى الله عليه و سلم و لأمته توسعة و رحمة و تخفيفاً .

و قوله صلى الله عليه و سلم : " و أحلت لي الغنائم " ، فكان من قبله إذا غنموا شيئاً أخرجوا منه قسماً فوضعه ناحية ، فتزل نار من السماء فتحرقه .

و قوله صلى الله عليه و سلم : " و أعطيت الشفاعة " يريد بذلك صلوات الله و سلامه عليه المقام المحمود الذي يغطيه به الأولون و الآخرون ، و المقام الذي يرغب إليه الخلق كلهم ليشفع لهم إلى ربهم ، ليفصل بينهم و يريحهم من مقام المحشر ، و هي الشفاعة التي يحيد عنها أولو العزم ، لما خصه الله به من الفضل و التشريف ، فيذهب إلى الجنة قبل الأنبياء ، و قول الخازن له : بك أمرت ، لا أفتح لأحد قبلك . و هذه خصوصية أيضاً ليست إلا له من البشر كافة ، فيدخل الجنة فيشفع إلى الله تعالى في ذلك كما جاء في الأحاديث الصحاح ، و هذه هي الشفاعة الأولى التي يختص بها دون غيره من الرسل . ثم تكون له بعدها شفاعات في إنقاذ من شاء الله من أهل الكبائر من النار من أمته ، و لكن الرسل يشاركونه في هذه الشفاعة ، فيشفعون في عصاة أممهم ، و كذلك الملائكة ، بل و المؤمنين كما في الصحيح من حديث أبي هريرة و أبي سعد فيقول الله تعالى [شفعت للملائكة ، و شفعت البيوت ، و شفعت المؤمنين ، و لم يبق إلا أرحم الراحمين] و ذكر الحديث . و قد استقصى هذه الشفاعات الإمام أبو بكر بن خزيمة في آخر كتاب التوحيد . و كذلك أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنة له ، و كذلك هي مبسطة بسطاً حسناً في حديث الصور الذي رواه الطبراني في المطولات ، و أبو موسى المدني الأصبهاني ، و غيرهما من صنف في صنف في المطولات . و قد جمع الوليد بن مسلم عليه مجلداً ، و قد أفردت إسناده في جزء ، فأما رواية أصحاب الكتب الستة كالصحيحين و غيرها ، فإنه كثيراً ما يقع عندهم اختصار في الحديث أو تقديم وتأخير ، و يظهر ذلك لمن تأمله ، و الله أعلم .

ثم رأيت في صحيح البخاري شيئاً من ذكر الشفاعة العظمى ، فإنه قال في كتاب الزكاة [باب من سأل الناس تكسراً] : " حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عبيد الله بن أبي جعفر ، قال : سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر قال : سمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم . و قال : إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك ، استغاثوا بآدم ثم موسى ثم محمد " . و زاد عبد الله بن يوسف " حدثني الليث عن أبي جعفر : فيشفع ليقضى بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً ، يحمداه أهل الجمع

كلهم " . فهذه هي الشفاعة العظمى التي يمتاز بها عن جميع الرسل أولي العزم ، بعد أن يسأل كل واحد منهم أن يقوم فيها ، فيقول : لست هناكم ، اذهبوا إلى فلان ، فلا يزال الناس من رسول إلى رسول حتى ينتهوا إلى محمد صلى الله عليه و سلم ، فيقول : أنا لها ، فيذهب فيشفع في أهل الموقف كلهم عند الله تعالى ، ليفصل بينهم ، و يريح بعضهم من بعض .

ثم له بعد ذلك شفاعات أربع آخر ، منها في إنقاذ خلق ممن أدخل النار . ثم هو أول شفيع في الجنة ، كما رواه الإمام أحمد في مسنده ، " عن المختار بن فلفل عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أنا أول شافع في الجنة " . و هو شفيع في رفع درجات بعض أهل الجنة ، و هذه الشفاعة اتفق عليها أهل السنة والمعتزلة و دليلها : ما في صحيح البخاري من رواية أبي موسى أن عمه أبا عامر لما قتل بأوطاس ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : اللهم اغفر لعبيد أبي عامر واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك " . و قال عليه الصلاة و السلام لما مات أبو سلمة بن عبد الأسد : اللهم ارفع درجته " . و سنفرّد إن شاء الله تعالى في الشفاعة جزءاً لبيان أقسامها و تعدادها وأدلة ذلك إن شاء الله تعالى .

و أما قوله صلى الله عليه و سلم : " و كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، و بعثت إلى الناس عامة " ، فمعناه في الكتاب العزيز ، و هو قوله عز و جل : " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم " ، و قوله تعالى : " وإن من أمة إلا خلا فيها نذير " ، فكان النبي ممن كان قبلنا لا يكلف من أداء الرسالة إلا ما يدعو به قومه إلى الله ، و أما محمد صلوات الله و سلامه عليه فقال الله تعالى : " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً " و قال تعالى : " لأنذركم به و من بلغ " و قال تعالى : " و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده " و قال تعالى : " و قل للذين أوتوا الكتاب و المؤمنين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتلوا و إن تولوا فإنما عليك البلاغ و الله بصير بالعباد " . و في أي كثير من القرآن تدل على عموم رسالته إلى الثقلين ، فأمره الله تعالى أن ينذر جميع خلقه إنسهم و جنهم ، و عرّهم و عجمهم ، فقام صلوات الله و سلامه عليه بما أمر ، و بلغ عن الله رسالته .

و من خصائصه على إخوانه من الأنبياء صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين أنه : أكملهم ، و سيّلمهم ، و خطيبهم ، و إمامهم ، و خاتمهم ، و ليس نبي إلا و قد أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به و لينصرنه ، و أمر أن يأخذ على أمتة الميثاق بذلك ، قال الله تعالى : " و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب و حكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به و لتصرنه قال أقررتم و أخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا و أنا معكم من الشاهدين " يقول تعالى : مهما آتيتكم من كتاب و حكمة ثم جاءكم رسول بعد هذا كله فعليكم الإيمان به و نصرته . و إذا كان هذا الميثاق شاملاً لكل منهم تضمن أخذه لمحمد صلى الله عليه و سلم من جميعهم ، و هذه خصوصية ليست لأحد منهم سواه .

و من ذلك أنه صلى الله عليه و سلم ولد مسروراً محتوناً كما ورد في الحديث الذي جاء من طرق عديدة لكنها غريبة و قد قيل إنه شاركه فيها غيره من الأنبياء كما ذكره أبو الفرج الجوزي في كتاب تلقيح الفهوم . و من ذلك أن معجزة كل نبي انقضت معه و معجزته صلى الله عليه و سلم باقية بعده إلى ما شاء الله ، و هو القرآن العزيز المعجز لفظه و معناه ، الذي تحدى الإنس و الجن أن يأتوا بمثله ، فعبجروا ، و لن يمكنهم ذلك أبداً إلى يوم القيامة .

و من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أسري به إلى سدرة المنتهى ، ثم رجع إلى منزله في ليلة واحدة ، و هذه من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، إلا أن يكون في الحديث من قوله بحيث يقول جبريل للبراق حين جمع لما أراد صلى الله عليه وسلم أن يركبه : [اسكن فو الله ما ركبك خير منه] ، و كذا قوله في الحديث : " فربطت الدابة في الحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء " ، ما يدل على أنه قد كان يسرى بهم ، إلا أننا نعلم أنه صلى الله عليه وسلم لن يشاركه أحد منه في المبالغة في التقريب والدنو منه ، للتعظيم ، و لهذا كانت منزلته في الجنة أعلاها منزلة و أقرها إلى العرش كما جاء في الحديث : " ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبده من عباد الله ، و أرجوا أن أكون أنا هو " صلى الله عليه وسلم .

و من ذلك أن أمته إذا اجتمعت على قول واحد في الأحكام الشرعية ، كان قولها ذلك معصوماً من الخطأ ، بل يكون اتفاقها ذلك صواباً و حقاً كما قرر ذلك في كتب الأصول ، و هذه خصوصية لهم بسببه لم تبلغنا عن أمة من الأمم قبلها .

و من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أول من تنشق عنه الأرض .

و من ذلك أنه عليه الصلاة و السلام إذا صعق الناس يوم القيامة يكون هو أولهم إفاقة ، كما أخرجه في الصحيحين " من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة اليهودي لما قال : لا و الذي اصطفى موسى على العالمين ، فطمه رجل من المسلمين ، و ترفعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا تفضلوني على موسى فإن الناس يسعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجدوا موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله " و في رواية : أم جوزي بصعقة الطور . و قد حمل بعض من تكلم على هذا الحديث هذه الإفاقة على القيام من القبر . و غيره في ذلك ما وقع روايات البخاري " من حديث يحيى ابن عمرو المدني عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخيروني على الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أكان ممن صعق أم جوزي بصعقته الأولى " . و هذا اللفظ مشكل ، و المحفوظ رواية البخاري " عن يحيى بن قزعة ، عن إبراهيم بن سعد ، عن الزهري ، عن أبي سلمة و عبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، فذكر قصة اليهودي إلى أن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم ، فأكون أول من يفيق ، فأجدوا موسى .. " و ذكر الحديث فهذا نص صريح لا يحتمل تأويلاً : أن هذه الإفاقة عن صعق لا عن موت ، و هذا حقيقة الإفاقة ، ثم من تأمل قوله : " فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور " جزم بهذا ، و الله سبحانه و تعالى أعلم .

و من ذلك أنه صاحب اللواء الأعظم يوم القيامة ، و يبعث هو و أمته على نشر من الأرض دون سائر الأمم ، يأذن الله له و لهم بالسجود في الخشوع دون سائر الأمم ، كما رواه ابن ماجه " عن جبارة بن المغلس الحماني : حدثنا عبد الأعلى بن أبي المساور ، عن أبي بردة ، عن أبيه أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة ، أذن لأمة محمد في السجود ، فيسجدون له طويلاً ، ثم يقال : ارفعوا رؤوسكم فقد جعلنا عدتكم فداءكم من النار " . و جبارة ضعيف . و قد صح من غير وجه أنهم أول الأمم يقضى بينهم يوم القيامة . و من ذلك أنه صاحب الخوض المورود ، و قد روى الترمذي و غيره : أن لكل نبي حوضاً . و لكن نعلم أن حوضه صلى الله عليه وسلم أعظم الحياض و أكثرها وارداً .

و من ذلك أن البلد الذي بعث فيه أشرف بقاع الأرض ، ثم مهاجره على قول الجمهور ، وقيل : إن مهاجره أفضل البقاع كما هو مأثور عن مالك بن أنس رحمه الله و جمهور أصحابه . و قد حكى ذلك عياض السبتي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه و الله أعلم ، و نقل الإتفاق على أن قبره الذي ضم جسده بعد موته أفضل بقاع الأرض . و قد سبقه إلى حكاية هذا الإجماع القاضي أبو الوليد الباجي و ابن بطال و غيرهما ، و أصل ذلك ما روي أنه لما مات صلى الله عليه و سلم اختلفوا في موضع دفنه فقبل بالبقيع ، و قيل بمكة ، و قيل بيت المقدس ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن الله لم يقبضه إلا في أحب البقاع إليه . و ذكره عبد الصمد بن عساكر في كتاب تحفة الزائر . و لم أره بإسناد .

و من ذلك أنه لم يكن ليورث بعد موته " كما رواه أبو بكر وأبو هريرة رضي الله عنهما ، عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال : لا نورث ما تركنا فهو صدقة " . أخرجاه من الوجهين و لكن روى الترمذي بإسناد جيد في غير الجامع "عن أبي بكر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه و سلم قال : نحن معشر الأنبياء لا نورث " فعلى هذا يكونون قد اشتركوا في هذه الصفة دون بقية المكلفين .

فصل :

و مما يشترك فيه هو و الأنبياء أنه صلى الله عليه و سلم كان تنام عيناه و لا ينام قلبه ، و كذلك الأنبياء . و جاء في الصحيح : " تراصوا في الصف فإني أراكم من وراء ظهري " فحمله كثير على ظاهره ، و الله أعلم ، و قال أبو نصر بن الصباغ : كان ينظر من ورائه كما ينظر من قدماه ، و معنى ذلك التحفظ و الحس و جاء في حديث رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده "عن أنس مرفوعاً : الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون " .

القسم الثاني — ما اختص به دون أمته ، و قد يشاركه فيها غيره من الأنبياء

القسم الثاني من الخصائص ما كان مختصاً به دون أمته و قد يشاركه في بعضها الأنبياء ، و هذا هو المقصود الأول فلنذكره مرتباً على أبواب الفقه .

كتاب الإيمان

فمن ذلك أنه كان معصوماً في أقواله و أفعاله ، لا يجوز عليه التعمد و لا الخطأ الذي يتعلق بأداء الرسالة و لا يقر فيبقى عليه ، فلا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . فلهذا قال كثير من العلماء : لم يكن له الاجتهاد ، لأنه قادر على النص . و قال آخرون : بل له أن يجتهد ، و لكن لا يجوز عليه الخطأ ، و قال آخرون : بل لا يقر عليه . فعلى الأقوال كلها هو واجب [العصمة] لا يتصور استمرار الخطأ عليه ، بخلاف سائر أمته ، فإنه يجوز ذلك كله على كل منهم منفرداً ، فأما إذا اجتمعوا كلهم على قول واحد فلا يجوز عليهم الخطأ كما تقدم .

و من ذلك ما ذكره أبو العباس بن القاص أنه كلف و حده من العلم ما كلف الناس بأجمعهم ، و استشهد البيهقي على ذلك بحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " بينا أنا نائم إذ أتيت بقدرح فيه لبن فشربت منه حتى إنني لأرى الري يجري في أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه . قالوا

: فما أول ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم " . رواه مسلم .

و من ذلك أنه كان يرى ما لا يرى الناس حوله ، ففي الصحيح " عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : هذا جبريل يقرأ عليك السلام ، فقالت : عليه السلام . يا رسول الله ، ترى ما لا نرى ؟ " ! " و عنها في حديث الكسوف الذي في الصحيحين : و الله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً و لبيكتم كثيراً " . و قال البيهقي : " أخبرنا الحكم محمد بن علي بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم الغفاري حدثنا عبيد الله بن موسى ، أخبرنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن مورك ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً " حتى ختمها ، ثم قال : إني أرى ما لا ترون ، و أسمع ما لا تسمعون ، أظن السماء و حق لها أن تنط ، ما فيها موضع قدر أصبع إلا ملك واضع جبهته ساجداً لله ، و الله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً و لبيكتم كثيراً و ما تلذذتم بالنساء على الفراش ، و خر جثم إلى الصدعات تجأرون إلى الله ، و الله ! لوددت أني شجرة تعضد " . رواه ابن ماجه ، قال البيهقي : يقال إن قوله : شجرة تعضد من قول أبي ذر ، و الله أعلم .

و من ذلك أن الله أمره أن يختار الآخرة على الأولى ، و كان يحرم عليه أن يمد عينيه إلى ما متع به المترفون من أهل الدنيا ، و دليله من الكتاب العزيز ظاهر .

و من ذلك أنه لم يكن له تعلم الشعر ، قال الله تعالى : " وما علمناه الشعر وما ينبغي له " ، " و عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبالي ما أتيت إن شربت ترياقاً أو تعلقت تميمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسي " رواه أبو داود ، فلهذا قال أصحابنا : كان يحرم عليه تعلم الشعر . و من ذلك أنه لم يكن يحسن الكتابة ، قالوا : و قد كان يحرم عليه ذلك ، قال الله تعالى : " الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجلو به مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل " و قال تعالى : " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون " . و قد زعم بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى تعلم الكتابة . و هذا قول لا دليل عليه ، فهو مردود ، إلا مارواه البيهقي من حديث أبي عقيل يحيى بن المتوكل ، عن مجالد ، عن عون بن عبد الله ، عن أبيه قال : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب و قرأ . و قال مجالد : فذكرت ذلك للشعبي فقال : قد صدق ، سمعت من أصحابنا يذكرون ذلك . و يحيى هذا ضعيف ، و مجالد فيه كلام . وهكذا ادعى بعض علماء المغرب أنه كتب صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية ، فأنكر ذلك عليه أشد الإنكار و تبرئ من قائله على رؤوس المنابر ، و عملوا فيه الأشعار ، و قد غره في ذلك ما جاء في بعض روايات البخاري : [فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ..] ، و قد علم أن المقيد يقضي على المطلق ، ففي الرواية الأخرى : [فأمر علياً فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم] .

و من ذلك أن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره ، فقد تواترت عنه صلوات الله و سلامه عليه : " أن من كذب عليه متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " . روي هذا الحديث من طريق نيف و ثمانين صحابياً : فهو في الصحيحين من حديث علي و أنس ، و أبي هريرة ، و المغيرة بن شعبه ، و عند البخاري من رواية الزبير بن العوام ، و سلمة بن الأكوع ، و عبد الله بن عمرو ، و لفظه : " بلغوا عني و لو آية ، و حدثوا عن بني إسرائيل و لا حرج ، و من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " . و في مسند أحمد : عن عثمان ، و عمر و أبي سعيد و وائلة

بن الأسقع ، و زيد بن أرقم . و عند الترمذي عن ابن مسعود . و رواه ابن ماجه عن جابر و أبي قتادة . و قد صنف فيه جماعة من الحفاظ كبارهم الحربي ، و يحيى بن صاعد ، و الطبراني ، و الزرار و ابن مندة ، و غيرهم من المتقدمين و ابن الجوزي ، و يوسف بن خليل من المتأخرين . و صرح بتواتره ابن الصلاح ، و النووي ، و غيرهما من حفاظ الحديث ، و هو الحق ، فلهذا أجمع العلماء على كفر من كذب عليه متعمداً مستجيزاً لذلك . و اختلفوا في المتعمد فقط ، فقال الشيخ أبو محمد يكفر أيضاً ، و خالفه الجمهور . ثم لو تاب فهل تقبل روايته ؟ على قولين : فأحمد بن حنبل و يحيى بن معين و أبو بكر الحميدي قالوا : لا تقبل ، لقوله صلى الله عليه و سلم " إن كذباً علي ليس ككذب علي أحد من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار " ، قالوا : و معلوم أن من كذب علي غيره فقد أثم و فسق ، و كذلك الكذب عليه ، لكن من تاب من الكذب على غيره يقبل بالإجماع ، فينبغي أن لا تقبل رواية من كذب عليه ، فرقاً بين الكذب عليه و الكذب على غيره . و أما الجمهور فقالوا : تقبل روايته ، لأن قصارى ذلك أنه كفر ، و من تاب من الكفر قبلت توبته و روايته ، و هذا هو الصحيح .

و من ذلك أنه من رآه في المنام فقد رآه حقاً كما جاء في الحديث : " فإن الشيطان لا يتمثل بي " ، لكن بشرط أن يراه على صورته التي هي صورته في الحياة الدنيا ، كما رواه النسائي عن ابن عباس . و اتفقوا أن من نقل عنه حديثاً في المنام أنه لا يعمل به ، لعدم الضبط في رواية الراي ، فإن المنام محل فيه تضعف فيه الروح و ضبطها . و الله تعالى أعلم .

و من ذلك ما ذكره الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه الكبير عن أبي العباس بن القاص في قوله تعالى : " لئن أشركت ليحبطن عملك " قال أبو العباس : و ليس كذلك غيره حتى يموت ، لقوله تعالى " و من يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم " قال البيهقي : كذا قال أبو العباس ، و ذهب غيره إلى أن المراد بهذا الخطاب غير النبي عليه الصلاة و السلام ، ثم المطلق محمول على المقيد . انتهى كلامه . قلت : و هذا الفرع لم يكن إلى ذكره حاجة لعدم الفائدة منه ، و ما كان ينبغي أن يذكر ، لولا ما يتوهم من إسقاطه إسقاط غيره مما ذكره و إلا فالضرب عن مثل هذا صفحاً أولى ، و الله أعلم .

و من ذلك أنه لم يكن له خاتنة الأعين ، أي أنه لم يكن له أن يومئ بطرفه خلاف ما يظهره كلامه ، فيكون من باب اللزم ، و مستند هذا قصة عبد الله بن سعد بن أبي سرح حين كان قد أهدر صلى الله عليه و سلم دمه يوم الفتح في جملة ما أهدر من الدماء ، فلما جاء به أخوه من الرضاعة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال : يا رسول الله بايعه ، فتوقف صلى الله عليه و سلم رجاء أن يقوم إليه رجل فيقتله ، ثم بايعه ، ثم قال لأصحابه : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رأي قد أمسكت يدي فيقتله ؟ ! فقالوا : يا رسول الله هلا أومأت إلينا فقال : " إنه لا ينبغي لني أن تكون له خاتنة الأعين " .

كتاب الطهارة

فمن ذلك أنه كان قد أمر بالوضوء لكل صلاة ، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك ، و مستنده " ما رواه عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً و غير طاهر ، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك كذلك صلاة . " . أخرجه أبو داود . فالظاهر من هذا أنه أوجب عليه السواك ، و هو الصحيح عند الأصحاب ، قاله أبو زكريا ، و مال إلى قوته الشيخ أبو عمرو بن الصلاح ، و يؤيده ما رواه الإمام

أحمد "عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه سينزل علي به قرآن أو وحي " . " وعن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما زال جبريل يوصيني بالسواك حتى خشيت على أضراسي " رواه البيهقي ، وقال : البخاري : هذا حديث حسن . " وقال عبد الله بن وهب : حدثنا يحيى بن عبد الله بن سالم ، عن عمرو مولى المطلب ، عن المطلب عبد الله ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لقد لزمتم السواك حتى تخوفت أن يدريني " . رواه البيهقي ، وفيه انقطاع بين المطلب وعائشة ، فيشكل على هذا ما رواه الإمام أحمد "عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت بالسواك حتى خشيت أن يكتب علي " ، وهذا قال بعض أصحابنا : إنه لم يكن واجباً عليه بل مستحباً .

ومن ذلك أنه كان لا ينتقض وضوؤه بالنوم ، و دليله حديث ابن عباس في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم نام حتى نفخ ، ثم جاءه المؤذن فخرج فصلى ولم يتوضأ و سببه ما ذكر في حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألتها فقالت : يا رسول الله تنام قبل أن توتر ؟ فقال : " يا عائشة ، تنام عيناى ولا ينام قلبي " أخرجاه . و اختلفوا : هل كان ينتقض وضوؤه بمس النساء ؟ على وجهين ، و الأشهر منهما الانتقاض . و كأن مأخذ من ذهب إلى عدم الانتقاض حديث عائشة في صحيح مسلم : أنها افتقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، ف وقعت يدها عليه و هو ساجد ، و هو يقول : " اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، و بمعافاتك من عقوبتك ، و بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " و جاء من غير وجه عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل ثم يصلي و لا يتوضأ و كان هذا القائل ذهب إلى تخصيص ذلك به صلى الله عليه وسلم ، و لكن الخصوم لا يقنعون منه بذلك ، بل يقولون : الأصل في ذلك عدم التخصيص إلا بدليل .

مسألة :

هل كان يحتلم ؟ على وجهين :

صحح النووي المنع ، و يشكل عليه حديث عائشة في الصحيحين : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبح جنباً من غير جماع ، غير احتلام ، ثم يغتسل و يصوم .

و الأظهر في هذا التفصيل ، و هو أن يقال : إن أريد بالاحتلام فيض من البدن ، فلا مانع من هذا ، و إن أريد به ما يحصل من تحبط الشيطان ، فهو معصوم من ذلك صلى الله عليه وسلم . و لهذا لا يجوز عليه الجنون و يجوز عليه الإغماء ، بل قد أغمي عليه في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها في الصحيح ، و فيه أنه اغتسل من الإغماء غير مرة ، و الحديث مشهور .

و من ذلك ما ذكره أبو العباس بن القاص أنه لم يكن يحرم عليه المكث في المسجد و هو جنب و احتجوا بما رواه الترمذي من حديث سالم بن أبي حفصة "عن عطية عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا علي ، لا يلج لأحد أن يجنب في هذا المسجد غري و غيرك " . قال الترمذي : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، و قد سمع البخاري مني هذا الحديث . قلت : عطية ضعيف الحديث . قال البيهقي : غير محتج به ، و كذا الرواي عنه ضعيف . و قد حمله ضرار بن صرد على الاستطراق ، كذا حكاه الترمذي عن شيخه علي بن المنذر الطريقي عنه ، و هذا مشكل ، لأن الاستطراق يجوز للناس فلا تخصيص فيه ، اللهم إلا أن يدعى أنه لا يجوز الاستطراق في المسجد النبوي لأحد من الناس سواهما ، و لهذا قال : " لا يلج لأحد أن يجنب في هذا المسجد غري

وغيرك " . و الله أعلم . و قال محدوج الذهلي ، " عن جصرة بنت دجاجة عن أم سلمة قالت : دخل النبي صلى الله عليه و سلم صرحة هذا المسجد فقال : ألا لا يحل هذا المسجد لحب و لا لحائض ، إلا لرسول الله صلى الله عليه و سلم و علي و فاطمة و الحسن و الحسين ، ألا قد بينت لكم الأسماء أن تصلوا " . رواه ابن ماجه و البيهقي ، و هذا لفظه ، قال البخاري : محدوج عن جصرة فيه نظر . ثم رواه البيهقي من وجه آخر عن إسماعيل بن أمية ، عن جصرة عن أم سلمة مرفوعاً نحوه . و لا يصح شيء من ذلك ، و لهذا قال القفال من أصحابنا : أن ذلك لم يكن من خصائصه صلى الله عليه و سلم و غلط إمام الحرمين أبا العباس بن القاص في ذلك . و الله أعلم .

و من ذلك طهارة شعره صلى الله عليه و سلم ، كما ثبت في صحيح مسلم عن أنس أنه صلى الله عليه و سلم : لما حلق شعره في حجته أمر أبا طلحة يفرقه على الناس . و هذا إنما يكون من الخصائص إذا حكمنا بنجاسة شعر من سواه ، المنفصل عنه في حال الحياة ، و هو أحد الوجهين . فأما الحديث الذي رواه ابن عدي من رواية ابن أبي فديك ، " عن بريح بن عمر بن سفينة ، عن أبيه عن جده ، قال : احتجم النبي صلى الله عليه و سلم ثم قال لي : خذ هذا الدم فادفنه من الدواب و الطير . أو قال : الناس و الدواب " . شك ابن أبي فديك ، قال : فتغيبت به فشربته . قال : ثم سألتني ، فأخبرته أنني شربته ، فضحك . فإنه حديث ضعيف لحال بريح هذا و اسمه إبراهيم ، فإنه ضعيف جداً . و قد رواه البيهقي من طريق أخرى فقال : " أخبرنا أبو الحسن بن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد ، حدثنا محمد بن غالب ، حدثنا موسى بن إسماعيل — أبو سلمة — حدثنا عبيد بن القاسم سمعت ابن عبد الله بن الزبير يحدث عن أبيه قال : احتجم النبي صلى الله عليه و سلم و أعطاني دمه فقال : اذهب فواره ، لا يثبت عنه سيع أو كلب أو إنسان قال : فتشيت فشربته ، ثم أتيت فقال : ما صنعت ؟ قلت صنعت الذي أمرتني . قال : ما أراك إلا قد شربته . قلت : نعم . قال : ماذا تلقى أمي منك ؟ ! " . و هذا إسناد ضعيف لحال عبيد بن القاسم الأسدي الكوفي ، فإنه متروك الحديث ، وقد كذبه يحيى بن معين ، لكن قال البيهقي : روي ذلك من وجه آخر عن أسماء بنت أبي بكر و سلمان الفارسي في شرب ابن الزبير دمه صلى الله عليه و سلم .

قلت : فلهذا قال بعض أصحابنا بطهارة سائر فضائله صلى الله عليه و سلم حتى البول و الغائط من وجه غريب ، و استأنسوا في ذلك لما رواه البيهقي " عن أبي نصر بن قتادة ، حدثنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن حامد العطار ، حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار ، حدثنا يحيى بن معن ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج قال : أخبرني حكيمة بنت أميمة ، عن أميمة أمها : أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يبول في قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره ، [فبال فيه ووضع تحت سريره] ، فجاء فأراد ، فإذا القدح ليس فيه شيء ، فقال لامرأة يقال لها بركة كانت تخدم لأم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة : [أين البول الذي كان في هذا القدح ؟] قالت شربته يارسول الله " . هكذا رواه ، وهو إسناد مجهول ، فقد أخرجه أبو داود و النسائي من حديث حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج ، و ليس فيه قصة بركة .

كتاب الصلاة

فمن ذلك الضحى و الوتر ، لما رواه الإمام أحمد في مسنده ، و البيهقي ، من حديث أبي جناب الكلبي — و اسمه يحيى بن أبي حية — " عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ثلاث هن علي فرائض ، و هي لكم تطوع : النحر ، والوتر ، و ركعتا الضحى " . اعتمد جمهور الأصحاب على هذا الحديث

في هذه الثلاث ، فقالوا بوجوبها .

قال الشيخ تقي الدين بن الصلاح رحمه الله تعالى : [تردد الأصحاب في وجوب السواك عليه ، و قطعوا بوجوب الضحى و الأضحى و الوتر عليه ، مع أن مستنده الحديث الذي ذكرنا ضعفه ، و لو عكسوا فقطعوا بوجوب السواك عليه و تردوا في الأمور الثلاثة لكان أقرب ، و يكون مستند التردد فيها أن ضعفه من جهة ضعف راويه أبي جناب الكلبي ، و في ضعفه خلاف بين أئمة الحديث ، و قد وثقه بعضهم ، و الله أعلم] .
قلت : جمهور أئمة الجرح و التعديل على ضعفه .

و قد حكى الشيخ أبو زكريا النووي في الثلاثة المذكورة تردداً لبعض الأصحاب ، و أن منهم من ذهب إلى استحبابها في حقه صلى الله عليه و سلم .

و هذا القول أرجح لوجوه :

— أحدها : أن مستند ذلك هذا الحديث ، و قد علمت ضعفه ، و قد روي من وجه آخر في حديث مندل بن علي العنزي و هو أسوأ حالاً من أبي جناب .

— و الثاني : أن الوتر قد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر : أنه كان صلى الله عليه و سلم يصليه على الراحلة . و هذا من حجتنا على الحنفية في عدم وجوبه ، لأنه لو كان واجباً لما فعله على الراحلة ، فدل على أن سبيله المندوب ، و الله أعلم .

و أما الضحى فقد جاء عن عائشة رضي الله عنها في الصحيح أنه كان لا يصلي الضحى إلا يقدم من مغيبه . فلو كانت واجبة في حقه لكان أمر مداومته عليها أشهر من أن ينفى . و ما في هذا الحديث الآخر أنه كان يصليها ركعتين ، و يزيد ما شاء الله ، فمحمول على أنه يصليها كذلك إذا صلاها و قد قدم من مغيبه ، جمعاً بين الحديثين و الله أعلم .

مسألة :

و أما قيام الليل — و هو التهجد — فهو الوتر على الصحيح ، لما رواه الإمام أحمد "عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : الوتر ركعة من آخر الليل " و إسناده جيد .

و إذا تقرر ذلك فاعلم أنه قد قال جمهور الأصحاب : إن التهجد كان واجباً عليه ، و تمسكوا بقول الله تعالى : " ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً " .

قال عطية بن سعيد العوفي ، عن ابن عباس في قوله تعالى : " نافلة لك " : يعني بالنافلة أنها للنبي صلى الله عليه و سلم خاصة ، أمر بقيام الليل فكتب عليه .

و قال عروة ، " عن عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا صلى قام حتى تتفطر قدماه ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر ؟ قال : يا عائشة ، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " رواه مسلم عن هارون بن معروف ، عن عبد الله بن وهب ، عن أبي صخر ، عن ابن قسيط ، عن عروة به . و أخرجاه من وجه آخر عن المغيرة بن شعبة . و روى البيهقي " من حديث موسى بن عبد الرحمن الصنعاني ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ثلاثة علي فريضة و هن سنة لكم : الوتر ، و السواك ، و قيام الليل " . ثم قال : موسى بن عبد الرحمن هذا ، ضعيف جداً ، و لم يثبت في هذا إسناد ، و الله أعلم .

و حكى الشيخ أبو حامد رحمه الله تعالى ، عن الإمام أبي عبد الله الشافعي رحمه الله تعالى : أن قيام الليل نسخ في حقه صلى الله عليه وسلم كما نسخ في حق الأمة ، فإنه كان واجباً في ابتداء الإسلام على الأمة كافة . قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح : وهذا هو الصحيح الذي تشهد له الأحاديث ، منها حديث سعد بن هشام عن عائشة ، و هو في الصحيح معروف . و كذا قال أبو زكريا النووي رحمه الله تعالى . قلت : و الحديث الذي أشار إليه رواه مسلم من حديث هشام بن سعد أنه دخل على عائشة أم المؤمنين فقال : يا أم المؤمنين ، أنبئني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : أليست تقرأ بيا أيها المزمّل ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً ، حتى انفضت أقدامهم ، و أمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء ، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة . و قد أشار الشافعي إلى الاحتجاج بهذا الحديث في النسخ ، و من قوله تعالى : " ومن الليل فتهجد به نافلة لك " قال : فأعلمه أن قيام الليل نافلة لا فريضة ، و الله سبحانه و تعالى أعلم .

مسألة :

و فاتته ركعتان بعد الظهر فصلاهما بعد العصر و أثبتهما ، و كان يداوم عليهما كما ثبت ذلك في الصحيح . و ذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم على أصح الوجهين عند أصحابنا . و قيل : بل لغيره إذا اتفق له ذلك أن يداوم لله عليهما . و الله تعالى أعلم .

مسألة :

و كانت صلاته النافلة قاعداً كصلاته قائماً إن لم يكن له عذر بخلاف غيره فإنه على النصف من ذلك ، و استدلوا على ذلك بما رواه مسلم " عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : صلاة الرجل قاعداً نصف الصلاة . فأتيته فوجدته يصلي جالساً فوضعت يدي على رأسه فقال مالك يا عبد الله بن عمرو ؟ فقلت : حدثت يا رسول الله أنك قلت : صلاة الرجل قاعداً على نصف الصلاة و أنت تصلي قاعداً ! فقال : أجل . و لكن لست كأحد منكم " .

مسألة :

و كان يجب على المصلي إذا دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبه ، لحديث أبي سعيد بن المولى في صحيح البخاري و ليس هذا لأحد سواه ، اللهم إلا ما حكاه الأوزاعي عن شيخه مكحول أنه كان يوجب إجابة الوالدة في الصلاة ، لحديث جريج الراهب : أنه دعت أمه و هو قائم يصلي فقال : اللهم أمني و صلاتي ، ثم مضى في صلاته . فلما كانت المرة الثانية فعل مثل ذلك ، ثم الثالثة فدعت عليه ، فاستجاب الله منها فيه ، و كان من قصته ما ذكر في صحيح البخاري وغيره ، و قد حكى مقررراً و لم ينكر . و الجمهور على أن ذلك لا يجب بل لا يصلح في الصلاة شيء من كلام الناس ، للحديث الصحيح ، اللهم إلا ما جوزه الإمام أحمد من مخاطبة الإمام بما ترك من آخر الصلاة لحديث ذي اليمين . و الله أعلم .

مسألة :

و كان لا يصلي على من مات و عليه دين لا وفاء له ، أخرجه البخاري في صحيحه ثلاثياً عن سلمة بن الأكوع ، لكن اختلف أصحابنا : هل كان يحرم عليه أويكره ؟ على وجهين ، ثم نسخ ذلك بقوله : " من ترك ما لا فلورثته ، و من ترك ديناً أو ضياعاً فإلي " فقليل : كان يقضيه عنه وجوباً ، و قيل : تكراً . و من ذلك أنه كان إذا دعا لأهل

القبور يملؤها الله عليهم نوراً ببركة دعائه صلوات الله و سلامه عليه ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها

و من ذلك أنه مر بقبرين فقال : " إني ليعذبان و ما يعذبان في كبير ، ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين فوضع على كل قبر شقة ، ثم قال : لعل الله يخفف عنهما ما لم ييبسا " . أخرجاه عن ابن عباس .
مسألة :

و من ذلك " أنه صلى الله عليه و سلم وعك في مرضه وعكاً شديداً فدخل عليه عبد الله بن مسعود فقال : يا رسول الله ! إنك لتوعك وعكاً شديداً ، فقال : أجل إني لأوعك كما يوعك الرجال منكم ، قلت : لأن لك أجري ؟ قال : نعم " . رواه الشيخان .
مسألة :

و لم يمت صلى الله عليه و سلم حتى خيره الله تعالى بين أن يفسح له في أجله ثم الجنة ، و إن أحب لقي الله سريعاً ، فاختار ما عند الله على الدنيا و ذلك ثابت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها .
مسألة :

و من ذلك أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، و الدليل عليه حديث شداد بن أوس ، و هو في السنن ، و قد صححه بعض الأئمة .

كتاب الزكاة

مسألة :

كان يحرم عليه أكل الصدقة سواء كان فرضاً أم تطوعاً : لقوله صلى الله عليه و سلم : " إن الصدقة لا تحل لخم و لا لآل محمد " . و روى مسلم " عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يأكل الهدية و لا يأكل الصدقة " . و هذا عام . و للشافعي قول في صدقة التطوع أنها كانت تحل له ، حكاه الشيخ أبو حامد و القفال ، قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح : و خفي على إمام الحرمين و الغزالي . و الصحيح الأول . أما توهم بعض الأعراب بعد وفاته صلى الله عليه و سلم أنها لا تدفع إلا إليه صلى الله عليه و سلم و امتناعهم عن أدائها إلى الصديق ، حتى قاتلهم عليها إلى أن دانوا بالحق و أدوا الزكاة ، فقد أجاب الأئمة عن ذلك في كتبهم أجوبة ، و قد بسطنا الكلام عليه في غير هذا الموضع .

كتاب الصيام

كان الوصال في الصيام له مباحاً ، و لهذا نهى أمته عن الوصال ، فقالوا : إنك تواصل ؟ قال : " لست كأحدكم ، إني أبيت عند ربي يطعمني و يسقيني " أخرجاه . فقطع تأسيهم به بتخصيصه بأن الله تعالى يطعمه و يسقيه ، و قد اختلفوا : هل هما حسيان ؟ أو معنويان ؟ على قولين . الصحيح : أنهما معنويان ، و إلا لما حصل الوصال .
مسألة :

و كان يقبل و هو صائم ، فقيل : كان ذلك خاصاً به ، و هل يكره لغيره ؟ أو يحرم ؟ أو يباح ؟ أو يبطل صوم من فعله كما قال ابن قتيبة ؟ أو يستحب له ؟ أو يفرق بين الشيخ و الشاب ؟ على أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر

مسألة

قال بعض أصحابنا : كان إذا شرع في تطوع لزمه إتمامه ، وهذا ضعيف يردده الحديث الذي في صحيح مسلم " عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم دخل عليها فقالت : يا رسول الله ، ههنا حيس ، فقال : أرنيه ، فلقد أصبحت صائماً فأكل منه " .

كتاب الحج

مسألة :

قال بعض أصحابنا كان يجب عليه إذا رأى شيئاً يعجبه أن يقول : [لبيك إن العيش عيش الآخرة] و كأن مستنده في ذلك ما رواه البخاري " عن سهل بن سعد قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم الخندق ، وهو يحفر ونحن ننقل ، فبصر بنا فقال : لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأتصار والمهاجرة " .
وقال الشافعي " أخبرنا سعيد ، عن ابن جريج ، أخبرني حميد الأعرج ، عن مجاهد أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يظهر من التلبية : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد و النعمة لك و الملك ، لا شريك لك " ، قال : حتى إذا كان ذات يوم ، و الناس يصرفون عنه ، كأنه أعجبه ما هو فيه ، فزاد فيها : [لبيك إن العيش عيش الآخرة] قال ابن جريج : و أحسب أن ذلك كان يوم عرفة .
قلت : لا يظهر من هذين الحديثين وجوب ذلك ، أكثر ما فيه استحباب مثل ذلك ، و قد قيل به في حق المكلفين .
و حديث مجاهد مرسل ، وقول ابن جريج منقطع . و الله أعلم .

مسألة

أبيحت له مكة يوماً واحداً ، فدخلها بغير إحرام . و قتل من أهلها يومئذ نحو من عشرين . و هل كان فتحها عنوة ؟ أو صلحاً ؟ على قولين للشافعي ، نصر كلا ناصرون . و بالجملة : كان ذلك من خصائصه كما ذكر صلى الله عليه و سلم في خطبته صحيحة ذلك اليوم ، حيث قال : " فإن ترخص أحد بقتال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيها ، فقولوا : إن الله أذن لرسوله و لم يأذن لكم " . و الحديث مشهور .

مسألة

تقدم الكلام على الحديث المقتضي لوجوب النحر عليه ، و أنه ضعيف .

كتاب الأطعمة

و من الأطعمة قال بعض الأصحاب : كان يحرم عليه أكل البصل و الثوم و الكراث ، ومستند ذلك ما أخرجه " عن جابر أن النبي صلى الله عليه و سلم : أتى بقدر فيه خضرات من بقول ، فوجد لها ریحاً ، فقال لبعض أصحابه : [كلوا] فلما رآه كره أكلها ، قال : [كل فإني أناجي من لا تناجي] " و قد يشكل على هذا القائل ما حكاه الترمذي عن علي و شريك بن حنبل : أنهما ذهبا إلى تحريم البصل و الثوم النيء .
و الصحيح الذي عليه الجادة : أن ذلك ليس حراماً عليه ، بل كان أكل ذلك مكروهاً في حقه ، والدليل على ذلك ما رواه مسلم " عن أبي أيوب أنه : صنع لرسول الله صلى الله عليه و سلم طعاماً فيه ثوم ، فردده و لم يأكل منه ،

فقال له : أحرام هو ؟ فقال : [لا ، و لكني أكرهه] فقال : إني أكره ما كرهت . قال الشيخ أبو عمرو : و هذا يبطل وجه التحريم . و الله تعالى أعلم .

مسألة :

و مثل ذلك الضب ، قال صلى الله عليه و سلم : " لست بأكله و لا محرمه " أي على الناس ، و إنما أمسك عن أكله تقديراً . و قد قال له خالد : يا رسول الله ، أحرام ؟ قال : " لا و لكنه لم يكن بأرض قومي ، فأجديني أعافه " . و هكذا يكره لكل من كره أكل شيء أن يأكله ، لما روى أبو داود " عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال : إن من القرف التلف " ، و قد كره الأطباء ذلك ، لما يؤدي إليه من سوء المزاج . و الله تعالى أعلم .

مسألة :

و روى البخاري " عن أبي جحيفة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أما أنا فلا أكل متكناً " ، فقال بعض أصحابنا : إن ذلك كان حرام عليه . قال النووي : و الصحيح أنه كان مكروهاً في حقه لا حراماً . قلت : فعلى هذا لا يبقى من باب الخصائص ، فإنه يكره لغيره أيضاً الأكل متكناً ، سواء فسر الاتكاء بالاضطجاع — كما هو المتبادر إلى أفهام كثيرين ، لما يحصل به من الأذى ، كما نهي عن الشرب قائماً — أم بالتربع كما فسره الخطابي و غيره من أهل اللغة ، و هو الصحيح عند التأمل و إنعام النظر ، لما فيه من التجبر و التعاضم ، و الله تعالى أعلم .

مسألة :

قال أبو العباس بن القاسم : و نهي عن الطعام الفجأة ، و قد فاجأه أبو الدرداء على طعامه فأمره بأكله ، و كان ذلك خاصاً له صلى الله عليه و سلم ، قال البيهقي : لا أحفظ النهي عن طعام الفجأة من وجه يشب ، ثم أورد حديث أبي داود من رواية درست بن زياد ، عن أبان بن طارق ، عن نافع ، عن ابن عمر مرفوعاً : [من دعي فلم يجب فقد عصي الله و رسوله ، و من دخل على غير دعوة فقد دخل سارقاً ، و خرج مغيراً] .

مسألة :

قالوا : و كان يجب على من طلب منه طعاماً ليس عنده غيره أن يبذله له ، صيانةً لمهجة النبي صلى الله عليه و سلم ، و وقايةً لنفسه الكريمة بالأموال و الأرواح ، لقوله تعالى : " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم " . قلت : و يشبه هذا الحديث الحديث الذي في الصحيحين : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده و والده و الناس أجمعين " .

مسألة

روى البخاري " عن الصعب بن جثامة مرفوعاً : [لا حمى إلا لله ورسوله] " . قال بعض أصحابنا : هو مختص به . و قال بعضهم : بل يجوز لغيره لمصحة ، كما حمى رسول الله صلى الله عليه و سلم النقب ، و حمى عمر رضي الله عنه السرف و الربذة ، إلا ما حماه رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يجوز تغييره بحال .

و من ذلك الهبة

مسألة :

كان يقبل الهدية و يشيب عليها ، ثبت ذلك في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها ، و ما ذاك إلا لما يرجو من تأليف قلب من يهدي إليه ، بخلاف غيره من الأمراء ، فإنه قد صح الحديث أن هدايا العمال غلول ، لأنها في حقهم كالرشى لوجود التهمة ، و الله تعالى أعلم .

مسألة :

قال زكريا بن عدي حدثنا ابن المبارك ، عن الأوزاعي ، عن ابن عطاء — قال زكريا : أراه عمر — عن ابن عباس في قوله تعالى : " وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله " قال : هو الربا الحلال ، أن يهدي يريد أكثر منه ، فلا أجر فيه ولا وزر . ونهي عن النبي صلى الله عليه وسلم خاصة : " ولا تمنن تستكثر " . رواه البيهقي عن الحاكم . وغيره عن الأصم ، عن محمد بن إسحاق ، عن زكريا . وهو أثر منقطع ، إن كان عمرو بن عطاء هو ابن وراز ، وهو ضعيف أيضاً ، وإن كان ابن أبي الخوار فقد روى له مسلم ، وقد روى عن ابن عباس ، ولكن الأمر فيه مبهم .

كتاب الفرائض

مسألة :

وهو أنه صلى الله عليه وسلم لا يورث ، وأن ما تركه صدقة ، كما أخرجاه في الصحيحين " عن أبي بكر رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها سألته ميراثها من أبيها ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ما تركنا صدقة " إنما يأكل آل محمد في هذا المال ، وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حالها التي كانت عليه في عهده . ولهما " عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يقسم ورثتي ديناراً ، ما تركت بعد نفقه نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة " . وقد أجمع على ذلك أهل الحل والعقد ، ولا التفات إلى خرافات الشيعة والرافضة ، فإن جهلهم قد سارت به الركبان .

كتاب النكاح

وفيه عامة أحكام التخصيصات النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ولندكرها مرتبةً على الأقسام التي ذكرها الأصحاب ، ليكون ذلك أخصر لها ، وأسهل تناولاً .

القسم الأول — وهو ما وجب عليه دون غيره

مسألة :

أمره الله تعالى بتخير أزواجه فقال تعالى : " يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحنن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً " وقد أخرجنا في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ذكر هذا التخيير ، وأن الله أمره بذلك .
و اختلف الأصحاب ، هل كان ذلك واجباً عليه أو مستحباً ؟ على وجهين صحح النووي وغيره الوجوب .
و اختلف الأصحاب : هل كان يجب جوابهن على الفور أو على التراخي ؟ على وجهين ، قال ابن الصباغ ما معناه : ولا خلاف أنه خير عائشة على التراخي بقوله : " فلا عليك أن تستأمري أبويك " .
قالوا : فلما اخترته ، فهل كان حرم عليه طلاقهن ؟ على وجهين ، وصحوا أنه لا يحرم . إلا أن الله تعالى حرم عليه النساء غيرهن مكافأة لصنيعهن ، ثم أباحه له لتكون له المنة في ذلك ، قالت عائشة رضي الله عنها : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أبيع له النساء . رواه الشافعي .

القسم الثاني — ما حرم عليه من النكاح دون غيره

مسألة :

قالوا : كان يحرم عليه إمساك من اختارت فراقه على الصحيح ، بخلاف غيره ممن يخير امرأته ، فإنها لو اختارت فراقه لما وجب عليه فراقها ، والله تعالى أعلم . وقال بعضهم : بل كان يفارقها تكريماً .

مسألة :

هل كان يحل له نكاح الكتابية ؟ على وجهين : صحح النووي الحرمة ، وهو اختيار ابن سريج والإصطخري وأبي حامد المروزي ، واستدل الشيخ أبو نصر بن الصباغ لهذا الوجه فقال : لقوله صلى الله عليه وسلم : " زوجاتي في الدنيا زوجاتي في الآخرة " ، ثم حكى الوجه الآخر وهو الإباحة وكأنه مال إليه ، ثم قال : والخبر لا حجة فيه ، لجواز أن من تزوج به منهن أسلمن .

قلت : وهذا الحديث ليس له أصل يعتمد عليه في رفعه ، وإنما هو من كلام بعض الصحابة ، وقال أبو إسحاق المروزي : ليس بحرام .

و في جواز تسريه بالأمة الكتابية ، وتزوجه بالأمة المسلمة ثلاثة أوجه أصحابها أنه يباح له تسري الكتابية ، ولا يباح له نكاح الأمة المسلمة ، بل يحرم .

وأما الأمة الكتابية : فقطع الجمهور بتحريم نكاحها عليه ، و طرد الحنطي فيها وجهين ، وهما ضعيفان جداً . و فرعوا هنا فروعاً فاسدة تركها أولى من ذكرها . وهذا النوع من الخصائص الذي زجر عنه ابن خيران والإمام و هما مصيبان في ذلك ، والله أعلم .

القسم الثالث — ما أبيض له من النكاح دون غيره

مسألة :

مات صلوات الله وسلامه عليه عن تسع نسوة ، و اتفقوا على إباحة تسع ، و اختلف أصحابنا في جواز الزيادة ، فالصحيح أنه كان له ذلك ، و دليله ما في البخاري عن بNDAR ، عن معاذ بن هشام ، عن أبيه ، عن قتادة ، عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف على نسائه في الساعة الواحدة من ليل أو نهار ، و هن إحدى عشرة . قلت لأنس : هل كان يطيق ذلك ؟ قال : كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين ، و في رواية أربعين . ثم رواه البخاري من حديث سعيد ، عن قتادة ، عن أنس : و عنده تسع . [و قال أنس : تزوج صلى الله عليه وسلم خمس عشرة امرأة ، و دخل بثلاث عشرة ، و اجتمع عنده إحدى عشرة ، و مات عن تسع] و قال قتادة أيضاً . و ذكره ابن الصباغ في شامله قال : و قال أبو عبيد : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثماني عشرة امرأة ، و اتخذ من الإماء ثلاثاً .

مسألة :

قالوا : و كان يصح عقده بلفظ الهبة ، لقوله تعالى : " إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين " وإذا عقده بلفظ الهبة فلا مهر بالعقد و لا بالدخول ، بخلاف غيره .

و هل كان ينحصر طلاقه في الثلاث ؟ فيه وجهان ، أصحهما : نعم ، لعموم الآية . و قيل : لا ، لأنه لما لم ينحصر نكاحه في الأربع ، لم ينحصر طلاقه في المطلقات الثلاث . و هذا تعسف ، لعدم التلازم .
مسألة :

و كان يباح له التزوج بغير ولي و لا شهود على الصحيح ، لحديث زينب بنت جحش أنها كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه و سلم و تقول : زوجكن أهلوكن ، و زوجني الله من فوق سبع سموات . رواه البخاري .
مسألة :

و هل كان يباح له التزوج في الإحرام ؟ على وجهين :
أحدهما : لا ، لعموم الحديث الذي في مسلم " عن عثمان ، عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لا ينكح الحرم و لا ينكح و لا يخطب " . و المخاطب داخل في عموم متعلق خطابه عند الأكثرين .
و صححوا الجواز ، لحديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه و سلم تزوج ميمونة وهو محرم . أخرجاه . و لكن يعارضه ما رواه مسلم عن ميمونة نفسها : أنه تزوج بها وهما حلالان . و صاحب القصة أعلم بما من الغير ، و الله أعلم .
مسألة :

و إذا رغب في نكاح امرأة وجب عليها إجابتها على الصحيح عند الأصحاب ، فيحرم على غيره خطبتها .
مسألة :

هل كان يجب عليه أن يقسم لنسائه و إماءته ؟ على وجهين : و الذي يظهر من الأحاديث الوجوب ، لأنه صلى الله عليه و سلم لما مرض جعل يطوف عليهن وهو كذلك ، حتى استأذن أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذن له . و قال أبو سعيد الإصطخري : لا يجب ، لقوله تعالى : " ترجي من تشاء منهن و تؤوي إليك من تشاء " الآية .
فيكون من الخصائص .

و هذا كله تفريع على أن تزوجه : هل هو بمنزلة التسري في حقها أو لا ؟ على وجهين .
مسألة :

و أعتق صفية و جعل عتقها صداقها ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس ، فقيل : معنى ذلك أنه أعتقها و شرط عليها أن تتزوج به ، فوجب عليها الوفاء بالشرط ، بخلاف غيره ، و قيل : جعل نفس العتق صداقاً ، و صح ذلك بخلاف غيره ، وهو اختيار الغزالي .

قلت : يشكل على هذا ما حكاه الترمذي عن الشافعي أنه جوز ذلك لآحاد الناس ، و هو وجه مشهور .
و قيل : أعتقها بلا عوض و تزوجها بلا مهر ، لا في الحال و لا في المآل ، و هو المحكي عن أبي إسحاق ، وقطع به الحافظ أبو بكر البيهقي ، وصححه ابن الصلاح و النووي . قلت : و وجه الشيخ أبو عمرو قوله : و جعل عتقها صداقها . يعني : أنه لم بمهرها ، غير أنه أعتقها ، فيكون كقولهم : الجوع زاد من لا زاد له .
و قيل : بل أمهرها جارية ، كما رواه البيهقي بإسناد غريب لا يصح .

القسم الرابع — ما اختص به من القضايل دون غيره

فمن ذلك أن أزواجه أمهات المؤمنين ، قال الله تعالى : " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم " و معنى هذه الأمومة : الاحترام ، و الطاعة ، و تحريم العقوق ، و وجوب التعظيم ، لا في تحريم بناقن و جواز الخلوة بهن ، و لا تنتشر الحرمة إلى من عداهن .

و هل هن أمهات المؤمنات ؟ على وجهين : صححوا المنع ، و هو قول عائشة رضي الله عنها ، و هذا تفريع على أن جمع المذكر السالم هل يدخل فيه النساء ؟ و هي مقررة في الأصول . و هل يقال في إخوانهن : أخوال المؤمنين ؟ فيه نزاع ، و النص جوازه . و هل يطلق على بناقن أخوات المؤمنين ؟ نص الشافعي في المختصر على جوازه ، و جوزه بعض الأصحاب ، و منع منه آخرون ، و قد أنكر ابن الصباغ و غيره ذلك على و قالوا : غلط .

فرع :

و هل يقال له صلى الله عليه و سلم : أبو المؤمنين ؟ نقل البغوي عن بعض الأصحاب الجواز . قلت : و هو قول معاوية ، و قد قرأ أبي و ابن عباس رضي الله عنهما " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم " . و نقل الواحدي عن بعض الأصحاب المنع ، لقوله تعالى : " ما كان محمد أباً أحد من رجالكم " ، و لكن المراد أباهم في النسب ، و إلا فقد " روى أبو داود : إنما أنا لكم مثل الوالد .. " الحديث في الاستطابة .

مسائل متفرقة

مسألة :

و أزواجه أفضل نساء الأمة لتضعيف أجرهن ، بخلاف غيرهن ، ثم أفضلهن خديجة و عائشة . قال أبو سعيد المتولي : و اختلف أصحابنا أيتهما أفضل من سائر الصحابة ، حتى من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قول لم يسبقه إليه أحد ، و هو أضعف الأقوال .

مسألة :

و يحرم نكاح زوجاته اللاتي توفي عنهن إجماعاً ، و ذلك لأنهن أزواجه في الجنة ، و إذا لم تتزوج المرأة بعد الموت زوجها فهي له في الآخرة ، كما روي أن أبا الدرداء قالت له زوجته عند الاحتضار : يا أبا الدرداء ، إنك خطبتني إلى أهلي فزوجوك ، و إني أخطبك اليوم إلى نفسك ، قال : فلا تزوجي بعدي . فخطبها بعد موته معاوية — و هو أمير — فأبى عليه . و روى البيهقي من حديث عيسى بن عبد الرحمن السلمي ، عن أبي إسحاق ، عن صلة ، عن حذيفة ، أنه قال لامرأته : إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تزوجي بعدي فإن المرأة في الجنة لآخر أزواجها في الدنيا . فلذلك حرم على أزواج النبي صلى الله عليه و سلم و رضي الله عنهم أن ينكحن بعده ، لأنهم أزواجه الجنة .

و اختلفوا فيمن طلقها في حال حياته على ثلاثة أوجه : ثالثها أن من دخل بها تحرم على غيره و نص الشافعي على التحريم مطلقاً ، و نصره ابن أبي هريرة ، لقوله تعالى : " وأزواجه أمهاتهم " و على هذا ففي أمة يفارقها بوفاة أو غيرها بعد الدخول وجهان . و قيل : لم يكن أزواجه حراماً على غيره إلا أن يموت عنهن ، و الدليل على ذلك آية التخيير ، فإنه لو لم تخير للغير ، لما كان في تخييره لمن فائدة ، و الله أعلم .

مسألة :

و من قذف عائشة أم المؤمنين قتل إجماعاً ، حكاه السهيلي و غيره ، و لنص القرآن على براءتها . و فيمن عداها من

الزوجات قولان .

مسألة :

و كذلك من سبه صلى الله عليه و سلم قتل ، رجلاً كان أو امرأة ، للأحاديث المتضافرة في ذلك ، التي يطول ذكرها ها هنا ، فمن ذلك حديث ابن عباس في الأعمى الذي قتل أم ولده لما وقعت في النبي صلى الله عليه و سلم ، و ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه و سلم فقال " ألا تشهدوا أن دمها هدر " . و قال شعبة عن توبة العنبري ، عن أبي السوار ، عن أبي برزة : أن رجلاً سب أبا بكر ، فقلت : ألا ضربت عنقه ؟ فقال : ما كانت لأحد بعد النبي صلى الله عليه و سلم . رواه النسائي و البيهقي . و روى ابن عدي ، من حديث يحيى بن إسماعيل الواسطي ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لا يقتل أحدكم بسب أحد إلا بسب النبي صلى الله عليه و سلم .

و قد صنف في ذلك الشيخ الإمام أبو العباس بن تيمية كتابه الصارم المسلول ، على من سب الرسول صلى الله عليه و سلم و هو من أحسن الكتب المؤلفة في ذلك . و الله أعلم .

مسألة :

و كان من خصائصه أنه إذا سب رجلاً ليس بذلك حقيقة ، يجعل سب رسول الله صلى الله عليه و سلم كفارة عنه ، و دليله ما أخرجه في الصحيحين " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : اللهم إني اتخذت عندك عهداً لن تخلفه ، إنما أنا بشر ، فأني المؤمنين آذيت ، أو شتمته أو جلدته ، أو لعنته ، فاجعلها له صلاة و زكاة و قربة تقربه بما إليك يوم القيامة " و لهذا لما ذكر مسلم في صحيحه في فضل معاوية ، أورد أولاً هذا الحديث ، ثم أتبعه بحديث " لا أشبع الله بطناً .. " فيحصل منهما مزية لمعاوية رضي الله عنه . و هذا من جملة إمامة مسلم رحمه الله تعالى .

و من الجهاد

مسألة :

و كان إذا لبس لأمة الحرب لم يجز له أن يقلعها حتى يقضي الله أمره ، لحديث يوم أحد لما أشار عليه جماعة من المؤمنين بالخروج إلى عدوه إلى أحد فدخل فلبس لأمنته ، فلما خرج عليهم قالوا : يا رسول الله ، إن رأيت أن ترجع ؟ فقال : " إنه لا ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب أن يرجع حتى يقاتل " ، الحديث بطوله ذكره أصحاب المغازي ، فقال عامة أصحابنا : إن ذلك كان واجباً عليه ، و إنه يجرم عليه أن ينزعها حتى يقاتل . و فرعوا عليه أنه لو شرع في تطوع لزمه إتمامه على أحد الوجهين ، و هو ضعيف ، لما قدمنا في الصوم . و الله أعلم . و قد ضعف هذا التفريع أبو زكريا أيضاً .

مسألة :

و ذكروا في خصائصه صلى الله عليه و سلم و جوب المشاورة ، يعني أنه يشاور أصحابه في أمور الحرب ، قال الله تعالى : " و شاورهم في الأمر " . قال الشافعي : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، قال : قال أبو هريرة رضي الله عنه : ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه و سلم . و قال الشافعي رحمه الله تعالى : قال الحسن : لقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم غنياً عن المشاورة ، و لكنه أراد أن يستن بذلك الحكام بعده .

قلت : فعلى هذا لا يبقى من الخصائص .

مسألة :

قالوا : و كان يجب عليه مصابرة العدو و إن زا دوا على الضعف ، و كأن ذلك مأخوذ من حديث الحديبية ، و الله أعلم ، " حيث يقول عليه الصلاة و السلام لعروة في جملة كلامه : فإن أبوا فوالله لأقاتلهم — يعني قريشاً — على هذا الأمر حتى تنفرد سقالي " و الحديث مخرج في صحيح البخاري .

مسألة :

و قد قدمنا قوله صلى الله عليه و سلم : " إنه لم يكن لنبي خائنة الأعين " . قالوا : و كان مع هذا يجوز له الخديعة في الحروب ، لقوله صلى الله عليه و سلم : " الحرب خدعة " . و كما فعل يوم الأحزاب من أمره نعيماً أن يوقع بين قريش و قريظة ، ففعل حتى فرق الله شملهم على يديه ، و ألقى بينهم العداوة و فل الله جموعهم بذلك و غيره ، و له الحمد و المنة .

مسألة :

و قد كان له صلى الله عليه و سلم الصفي من المغنم ، و هو أن يختار فيأخذ ما يشاء : عبداً ، أو أمةً ، أو سلاحاً ، أو نحو ذلك قبل القسمة ، و قد دل على ذلك أحاديث في السنن و غيرها .
و كذلك كان له خمس الغنيمة ، و أربعة أخماس الفبيء ، كما هو مذهبننا ، لا خلاف في ذلك .
و من الأحكام

مسألة :

قالوا : له أن يحكم بعلمه لعدم التهمة ، و شاهده حديث هند بنت عتبة ، حين اشتكت من شح زوجها أبي سفيان ، فقال : " خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك و يكفي بنيك " . و هو في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها .
و في حكم غيره بعلمه خلاف مشهور حاصله ثلاثة أقوال ، ثالثها : يحكم في غيره حدود الله .
قالوا : و على هذا فيحكم لنفسه و ولده ، و يشهد لنفسه و ولده ، و تقبل شهادة من يشهد له ، لحديث خزيمة بن ثابت ، و هو حديث حسن مبسوط في غير هذا الموضع ، و الله تعالى أعلم .

مسألة :

قالوا : و من استهان بمحضرة أو زنى ، كفر . و قال الشيخ أبو زكريا النووي : و في الزنى نظر . و الله أعلم .

مسألة :

يجوز التسمي باسمه بلا خلاف ، و في جواز التكني بكنية أبي القاسم ثلاثة أقوال للعلماء :
أحدها : المنع مطلقاً ، و هو مذهب الشافعي ، حكاه عنه السيهيقي ، و البغوي ، و أبو القاسم بن عساكر الدمشقي :
لحديث ورد فيه " عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : تسموا باسمي و لا تكنوا بكيتي " أخرجاه ، و لهما عن أبي هريرة مثله .

و الثاني : و هو مذهب مالك ، و اختيار النووي — رحمهما الله تعالى — إباحته مطلقاً ، لأن ذلك كان لمعنى في حال حياته زال بموته صلى الله عليه و سلم .

الثالث : يجوز لمن ليس اسمه محمداً ، و لا يجوز لمن اسمه محمد ، لئلا يكون قد جمع بين اسمه و كنيته ، وهذا اختيار أبي القاسم عبد الكريم الرافعي .

مسألة :

وذكروا في الخصائص : أن أولاد بناته يتسبون إليه ، استناداً إلى ما رواه البخاري " عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : رأيت الحسن بن علي رضي الله عنهما عند النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر ، وهو ينظر إليه مرة و إلى الناس أخرى ، فيقول : إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " .

مسألة :

و من الخصائص أن كل نسب و سبب ينقطع نفعه و بره يوم القيامة إلا نسبه و سببه و صهره صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون " . و قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا أم بكر بنت المسور بن محرمة ، " عن عبد الله بن أبي رافع ، عن المسور ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : فاطمة بضعة مني يغيطان و يسطن ما يبسطها ، و إن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي و سبي و صهري " . هذا الحديث في الصحيحين عن المسور بغير هذا اللفظ ، و بدون هذه الزيادة . قال الحافظ أبو بكر البيهقي : و قد روى جماعة هذا الحديث بهذه الزيادة عن عبد الله بن جعفر هذا ، و هو الزهري ، عن أم بكر بنت المسور بن مخزومة ، عن أبيها ، و لم يذكر ابن أبي رافع ، فالله أعلم .

" و عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما خطب أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال له علي : إنما صغيرة ، فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل سبب و نسب ينقطع يوم القيامة إلا سبي و نسبي " ، فأجبت أن يكون لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب و نسب ، فزوجه علي رضي الله عنهما . رواه البيهقي من حديث سفيان بن وكيع ، و فيه ضعف . و عن روح بن عبادة ، عن ابن جريج ، عن ابن أبي ملكية ، عن حسن بن حسن ، عن أبيه ، أن عمر ... فذكره .

قال أصحابنا : قيل : معناه أن أمته يتسبون إليه يوم القيامة ، و أمم سائر الأنبياء لا تتسبب إليهم . و قيل : ينتفع يومئذ بالانتساب إليه ، و لا ينتفع بسائر الأنساب . و هذا أرجح من الذي قبله ، بل ذلك ضعيف ، قال الله تعالى : " و يوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم " . و قال تعالى : " ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط و هم لا يظلمون " ، في أي كثيرة دالة على أن كل أمة تدعى برسولها الذي أرسل إليها . و الله سبحانه و تعالى أعلم بالصواب .

و الحمد لله أولاً و آخراً و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم .
قد تمت هذه النسخة المباركة في يوم الأربعاء من شهر جمادى الآخرة من سنة إحدى و مائة و ألف على يد أضعف العباد و أوجههم : حسن بن الحاج رمضان الخطيب الأيوبي غفر الله له و لوالديه و أحسن إليهما و إليه